نظرية "سمات الشخصية العربية" والرد المضاد

بقلم: عبد الرحمن حمادي

الشعوب بالنقص لدى الإنسان العربي المعاصر، لماذا؟ وإلى أين؟

بصيغة أخرى يأتي السؤال كما يلي: لماذا هذا الإحساس المتجذّر بالإحباط والنقص في نفسية الإنسان العربي؟ إحساس وصل حدّاً يجعل العربي يشعر بنقصه تجاه الأمم الأخرى وأنه أعجز من أن يحقق ما حققته الأمم الأخرى، وإلى أين يقود هذا الإحساس العربي اليوم ومستقبلاً؟

هذا السؤال بالتأكيد لم ينخر عقل جيلي فحسب، بل أرّق أجيالاً سبقتنا، وسوف يؤرق أجيالاً تلينا، فهو سؤال دائم الإلحاح ما دام الواقع العربي على ما هو عليه من إحباطات وهزائم وتخلف وأزمات أورثت بمجملها فيما أورثت أحاسيس بالعجز والنقص لدى الإنسان العربي وجعلته يصدق كل ما يقال له عن ضعفه وتكوينه، وهي أقوال لها أهدافها لدى مطلقيها بلا شك.

إنه الإحساس بالنقص إذن، وما أراني ألا أعذر نفسي وجيلي ومن سبقنا ومن يلينا، فالاحباطات كانت وما تزال متصلة، والهزائم متكررة، ومساحة البياض في التاريخ العربي المعاصر تزداد ضيقاً أمام زحف القتامات، ومعها يزحف مزيد من شعور اليأس والنقص إلى نفسية العربي حتى وصل الأمر إلى حد يفترض معه بالعرب أن يحاكموا أنفسهم بجرأة وموضوعية، ويعوا الأسباب التي أدت إلى إحساسهم المرير بالنقص والعجز هذا.

في التاريخ العربي:

نبدأ من التاريخ العربي، ومن المسلمات أن كل إنسان لا يعتز بتاريخ أمته يخرج عن استحقاقه الانتساب لهذه الأمة.

ولعلها من أولى الضروريات أن نعتز بتاريخنا العربي اعتزازاً كبيراً إلى الحد الذي يجعلنا نتعصب لهذا التاريخ، وفي تاريخنا الذي قرأناه كنا وما نزال نعتز ونفخر بالإضاءات البارزة الكثيرة التي تشع من هذا التاريخ، وما زلنا نتعلم ونعلم أولادنا كيف يعتزون بتاريخهم ويتذاكرون ويذكرون إضاءاته وبفخر.

قرأنا ويقرأ أولادنا في إضاءات التاريخ العربي واعجبتنا كثرتها، وزهونا بدماء الشهداء الكثيرة التي سالت من أجل تلك الإضاءات، فمن (ذي قار) في الجاهلية إلى فتوحات العرب بعد ظهور الدعوة الاسلامية، إلى معارك الاستقلال الوطنية في العصر الحديث.. إلى آخره، بحيث أننا نحتاج إلى صفحات كي نعدد إضاءات تاريخ العرب تعداداً فقط.

لكن المشكلة إننا في قراءة هذا التاريخ لم نذكر منه إلا الإضاءات فقط، والكتب الاكاديمية والتعليمية تدرّس التاريخ العربي بشكل استعراضي على أنه إضاءات وإضاءات فقط، في حين كنا وما نزال نفتقر إلى دراسات ومناهج تعليمية موضوعية لديها الجرأة على أن تستعرض سلسلة الإنكسارات والقتامات في تاريخنا، وكذلك تحلل أسبابها ونتائجها. حتى على أعلى المستويات الجامعية ما زال الطالب يتلقى التاريخ العربي على أنه إشراقات فقط، مع أن دراسة التاريخ العربي دراسة موضوعية توضح تماماً أسباب التردي والتخلف اللذين وصلنا إليهما الآن، لأن التخلف والتردي لهما سلسلة متصلة من الأسباب تضرب عميقاً في التاريخ العربي.

من هذا المنطلق، فإننا يجب أن نجد الجرأة كي نستعرض تاريخنا ونقر بأن التاريخ العربي القديم لم يكن كله سلسلة

من الإضاءات، بل إن سلسلة الإضاءات كادت أن تكون متوازية مع سلسلة من القتامات والنكسات التي لم تكن نكبة بغداد على يد المغول أفظعها، بل كان هناك ما هو أفظع منها بكثير. ويكفي أن نختار شريحة من التاريخ العربي القديم لنجد مصداق ذلك، وليكن مثلاً كتاب «تجارب الأمم وتعاقب الهمم»، لمسكويه[1]، فهذا المؤرخ الذي قدّم تأريخاً واقعياً للفترة الزمنية التي كتب عنها يرينا مدى الظلم والقهر الذي حاق بالإنسان العربي عبر تاريخه، وبشكل قد لا نصدقه أحياناً، ولكنه وقع فعلاً، فمما ذكره عن الوضع الاقتصادي للبلاد العربية آنذاك وصفه للمجاعة التي حدثت سنة ٣٣٤ هـ.، يقول:

«في هذه السنة أفرط الغلاء حتى عدم الناس الخبر البتة.. وأكل الناس الموتى والحشيش والميتة والجيف، وكانت الدابة إذا راثت اجتمع الناس على الروث جماعة ففتشوه ولقطوا ما يجدون من شعير وأكلوه، وكان يؤخذ بزرقطونا ويضرب بالماء ويبسط على طبق حديد، ويجعل على النار حتى يغلي ويؤكل، ولحق الناس من ذلك في أحشائهم أورام ومات أكثرهم، ومن بقي كان في صورة الموتى.

وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق فيصيح: الجوع الجوع إلى أن يسقط ويموت، وكان الإنسان إذا وجد اليسير من الخبز ستره تحت ثيابه وإلا استلب الناس منه، ولكثرة الموتى لم يكن يلحق دفنهم، وكانت الكلاب تأكل لحومهم، وخرج الضعفاء إلى البصرة خروجاً مفرطاً متتابين لأكل التمر فتلف أكثرهم في الطريق، ومن وصل منهم مات بعد مد يده، ووجدت إمرأة هاشمية وقد سرقت صبياً فشوته وهو حي في تنور...»[2].

ذلك مثال فقط مما ورد في كتاب مسكويه، ما أراه يجعلنا نرتجف هلعاً واستغراباً من أن يكون العربي قد لحق به كل هذا الحيف والظلم.

إذن، نحن نفتقر للقراءات الموضوعية الجريئة لتاريخنا العربي، بينما فعل الأوروبيون ما لم نفعله نحن، فدرسوا تاريخنا برمته وحللوه، لكنهم احتفظوا لأنفسهم به، وقدموا لنا منه ما يخدم مآربهم فقط[3]، واقنعونا بما أعطونا من تاريخنا، وبين هذا وذاك نجحوا في جعلنا نشك حتى بالإضاءات الواردة في تاريخنا، وأنها محض صدفة أو مبالغة، وأن ما ينسب للعرب من فضل قديم غير صحيح لأن العرب لم يكونوا إلا نقلة للعلوم والفلسفة اليونانية..

أقول: كادوا أن يقنعونا بذلك، وساهم تلامذتهم العرب ـ للأسف ـ في عملية الإقناع المشبوهة هذه، ومن ثم وجدنا أنفسنا أمام تيارات الفكر الاستعماري الرجعي التي تغلغلت إلى العرب، وما تزال تحاول بسط المزيد من سيطرتها عليهم.

نظرية «السمات العربية» والرد المضاد:

إن غياب التأريخ الموضوعي الجريء وفي ظل التجزئة والتخلف العربيين جعل أصحاب الفكر الاستعماري يفرضون بشكل أو بآخر نظرية «السمات العربية» ويروجون لها، ووجدوا من يروج لها معهم من أصحاب الفكر الانعزالي والاقليمي. وخطورة هذه النظرية قولها بأن التخلف والتجزئة العربية هما من صلب الشخصية العربية ومن أصول السمات العربية، ومن ثم وضعوا صورة لما يجب أن تكون عليه الأوضاع العربية اقتصادياً واجتماعياً في الوطن العربي من حيث التبعية والتخلف والتجزئة، ووضعوا بالتالي صورة لما يجب أن تستمر عليه الشخصية العربية من حيث الخضوع والاستسلام والضياع والانغماس بإحساس العجز واليأس والنقص.

وما زالوا يسعون لترسيخ نظريتهم الباطلة هذه عن الشخصية العربية كي يقنعوا العربي بأن شخصيته هي سبب التخلف في الوطن العربي من جهة، كما أنهم رسموا كيفية تشكيلها بحيث تدعم هذا التخلف من جهة أخرى.

من الواضح تماماً أن نظرية السمات العربية التي يروج لها أصحاب الفكر الاستعماري ما هي في حقيقتها إلا جزء من الحملة الامبريالية للهيمنة على مقدرات الوطن العربي وهي حملة لم توفر الأساليب المادية والمعنوية، حيث أدرك الأمبرياليون العلاقة الجدلية بين استمرارية نهب الثروات العربية وإعاقة عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية فيه من جهة، وبين استمرارية قهر الإنسان العربي وإخضاعه وإقناعه بعجزه وتحطيم مقومات ثقته بنفسه من جهة أخرى، ومن هنا يأتي التلازم في المهمات لعلمي الاقتصاد والاجتماع العربيين، فكما كشف علم الاقتصاد العربي حقيقة الامبريالية وأهدافها بتجزئة وتخلف الوطن العربي، يجب أن يكشف العلم الاجتماعي الأهداف الحقيقية للامبريالية بالنسبة للشخصية العربية، وذلك بتحليل ونقد ورفض النظريات والاجراءات الاجتماعية ذات الطابع الامبريالي التي تهدف

إلى تكريس حالة التخلف والتبعية وانعدام الثقة بالنفس لدى العربي.

ومن هذا المنطلق نقول إن الرد على النظريات الامبريالية فيما يتعلق بالإنسان العربي وفي مقدمتها نظرية «السمات العربية» يجب أن يرتكز على نقطتين أساسيتين هما:

١ - الدراسة الواقعية والموضوعية للتاريخ العربي، وخاصة الظروف التي مر بها الوطن العربي منذ بدايات استعماره وإخضاعه، وأثر تلك الظروف على التكوينات الاجتماعية والاقتصادية للوطن العربي، وانعكاس ذلك على مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي عاش وما يزال يعيش في ظلها الإنسان العربي، وأثرت على شخصيته.

٢ - النقطة الثانية هي دراسة الأساليب الايديولوجية والثقافية التي تتبع لتكريس السمات السلبية التي خلقتها حالة التخلف والتجزئة في شخصية الإنسان العربي[٤].

إن دراسة واقعية جريئة تستند على ما ذكرنا توضح بطلان نظرية «السمات العربية» وأن السمات الشخصية للإنسان العربي مثل أي إنسان آخر، تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعيش في ظلها، وبالتالي تصبح من التجني والحقد عملية نسب سمات بعينها للإنسان العربي مثلما يفعل علماء الإمبريالية، كما يتضح أن سمات الشخصية للإنسان العربي هي نتاج تاريخي اقتصادي - اجتماعي، فالإنسان العربي مثل أي إنسان في أي مكان، مزود بقدرات وإمكانات واستعدادات إنسانية كامنة منذ الولادة وقابلة للتشكل وللنمو أو الإعاقة، وأن جميع سمات الشخصية الإنسانية توجد في أي مجتمع، بما في ذلك المجتمع العربي على هيئة أضداد (الإيجابية والسلبية)، كالخضوع والتمرد، لغباء والذكاء، النمطية والابتكارية، التواكلية والإقدام... إلى آخره، وكل من هذه السمات قابلة للتحول إلى ضدها إذا ما توفرت ونضجت الظروف الموضوعية لذلك.

استقراء الجواب:

ما دامت نظرية «السمات العربية» قد ثبت بطلانها وأهداف مروّجيها، نرانا نعود إلى السؤال الذي طرحناه في البداية حول أسباب الإحساس بالعجز والإحباط والنقص لدى الإنسان العربي.

وإذا كان الجواب بالبديهية هو وجود الإنسان العربي في ظل واقع التجزئة والتخلف، فإن السؤال هو: لماذا حالة التخلف والتجزئة التي وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم؟

الجواب نستقرئه من التاريخ العربي، حيث يوضح هذا التاريخ أن حالة التخلف والتبعية التي يعاني منها الوطن العربي إنما هي نتاج للتسلط الأجنبي على مقدرات الوطن العربي ابتداء من القرن العاشر الميلادي الذي شهد قمة وبداية التراجع في التطور الاقتصادي الذي كان يتمثل في ازدهار الزراعة وتقدم فنون الصناعة وازدياد التحضر. وعلى مدى سبعة قرون، إبتداء من القرن العاشر الميلادي وحتى القرن الثامن عشر شهدت البلاد العربية أنماطاً من النهب المنظم لثرواتها ومن التدهور الاقتصادي المستمر على أيدي الغزاة البويهيين والسلاجقة والايلخانة في العراق والمماليك في مصر والعثمانيين، وكانت هذه القرون السبعة من الضعف الاقتصادي والحضاري في الوطن العربي، والتسلط الأجنبي عليه المرحلة الممهدة لتغلغل النفوذ الغربي في البلاد العربية الذي انتهى بالغزو العسكري والاحتلال وتقسيم البلاد وفق مصالح الدولة المسيطرة، وزرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي كأداة مباشرة لتنفيذ استراتيجيته الامبريالية في المنطقة[٦]، وهكذا انحجب الانسان العربي وأحاط به الغموض، وقلقت شخصيته واضطربت.

ولعله مما زاد الغموض والاضطراب أن القرن العشرين قد أخذ العربي أخذاً عنيفاً، إذ وضعه، خاصة منذ الحرب العالمية الأولى في مهاب رياح عاصفة هبت عليه من كل صوب، فحملت إليه آراء متناقضة ليتجه أفراد منه يساراً ويتجه آخرون يميناً، وأخذ هؤلاء بالحمية والنخوة للدفاع عن التراث، وأخذ أولئك بنظريات التحديث، وهؤلاء وأولئك لم يدركوا واقعهم، فتغلغلت بينهم آراء كثيرة ونظريات متعددة تدعو إلى هذا وذاك، ووقعت على نفوس لم تقو عيدانها بعد، وبذلك أصابها العجز والانحراف.

وماذا عن اليقظة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟

أما كان لتلك اليقظة وبعد عقود كثيرة أن تنهي حالة التخلف والتجزئة، وما دامت قد فشلت في أن تفعل ذلك «أليست دليلاً على صحة نظرية «السمات العربية»»؟

سؤال نطرحه بعد أن طرحه أصحاب الفكر الإمبريالي

مدللين على صحة نظريتهم حول «السمات العربية» بفشل العرب بعد يقظتهم الحديثة بتجاوز الثغرات التي كانت سائدة في عصور الانحطاط.

إن العرب بالحقيقة لم يفشلوا بتوظيف يقظتهم المعاصرة بسبب قصور في شخصيتهم كما يقول أصحاب نظرية «السمات العربية»، بل للظروف التي نشأت فيها اليقظة والتيارات الفكرية التي سيطرت عليها وسادت فيها، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتبين ثلاثة تيارات فكرية:

- تيار يتمثل فيه أصحاب الثقافات القديمة، الثقافات اللغوية والدينية.
- تيار يتمثل فيه أصحاب الثقافات الجديدة، الثقافات العسكرية والمدنية.
- تيار يتمثل فيه القديم والجديد.

لقد كان أصحاب التيار الأول من أهم العقبات التي قامت في سبيل التجديد على قوتهم وأهمية شأنهم، في حين كان أصحاب التيار الثاني مجددين، سعوا إلى بعث الحياة في القديم واستجلاب الجديد من الخارج، بيد أن أصحاب هذا التيار المجدد شغلهم الجانب السياسي عن كل شيء، وكانت الحرية هي قبلتهم التي يتوجهون إليها صباح مساء، ومن هنا كانت جهودهم في غير هذا الميدان قليلة، بل قد لا نرى لهم جهوداً في ميدان مثل ميدان الاقتصاد، فبقي الفراغ كبيراً للمنظرين الإمبرياليين وتلاميذهم المخدوعين الذين تغلغلوا لهذا الفراغ وملأوه بنظرياتهم وآرائهم المغرضة.

أما أصحاب التيار الثالث فقد جمعوا بين القديم الخالص والجديد الخالص، ولعبوا دوراً كبيراً في الحياة العربية، دوراً يجعلنا نعتقد أن أثرهم كان أكبر من أثر السابقين، ومن زعماء التيار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي، وقد حاول هؤلاء جاهدين أن يقيموا التجديد على أساس من الدين ومنه ينتهون إلى إصلاح سياسي، أي أنهم كانوا يتمثلون الإصلاح الديني على الشاكلة التي تم بها في الغرب إذ كانوا يعرفون الحركة البروتستانتية وما أدت إليه من يقظة عقلية وحركات سياسية فحاولوا أن يفعلوا ذلك في مجتمعنا هذا.

هكذا كانت اليقظة العربية بتياراتها الثلاثة، وبالتالي لم تكن يقظة متكاملة، في جانبها الفكري والسياسي على الأقل.

وعلى الرغم من حصول البلدان العربية على استقلالها السياسي تباعاً ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين، وانتهاء العقد الاستعماري القديم، إلا أن هذا الاستعمال القديم قد أخلى في الواقع مكانه لعقد من نوع جديد هو العقد الإمبريالي - الصهيوني الذي كان أقل بروزاً من سابقه، فهو يفوقه ضراوة وتخريباً، لأنه يخفي حقيقته ويتزيا بلباس الخداع والمبادىء والمثل العليا، فهناك الاستغلال متعدد الأشكال الذي تفرضه الدول الإمبريالية بمؤسساتها وشركاتها على تلك البلدان، وأساليب القهر والضغط والتدخل بالشؤون الداخلية والتجسس والتخريب بواسطة العملاء ودعم الفئات الرجعية والإنعزالية، وتأجيج الصراعات الطائفية والإقليمية وغيرها، وحبك المؤامرات والانقلابات وغير ذلك من أساليب تلجأ إليها من أجل إبقاء هيمنتها عليها واستمرار استغلالها لمواردها الإقتصادية وثرواتها الطبيعية.

لقد كان للتغلغل الرأسمالي - الإمبريالي آثار عميقة وبعيدة المدى على البنى الاقتصادية والاجتماعية لبلدان الوطن العربي، وعلى الأوضاع الحضارية والفكرية والثقافية فيها، وقد إنعكست جميعها على الوجود الاجتماعي للإنسان العربي، ومن ثم على وعيه الاجتماعي بصفة عامة، وعلى شخصيته وأحاسيسها بصفة خاصة، كما أن محصلة التغلغل الرأسمالي الإمبريالي في الوطن العربي هي إعاقة نمو نمط الإنتاج القديم وتطوره إلى نمط الإنتاج الرأسمالي - الصناعي، كما حدث في المجتمعات الغربية.

والنتيجة هي أن ما ذكرناه يكفي لدحض كل الادعاءات الكاذبة التي تروجها الدوائر الإمبريالية والتي ما زالت تجد لها صدى لدى الكثيرين من المفكرين العرب، على أن السمات الشخصية للإنسان العربي هي المسؤولة عن تخلف الوطن العربي، وأن العرب يقاومون التحديث والتجديد والتنمية.

الملح والجرح:

كل ما ذكرته حتى الآن ليس دفاعاً عن التخلف حتماً، ولا هو محاولة لإيجاد تبريرات للتجزئة العربية التي بلغت حداً مروعاً، بل أكاد أعلن مع أحمد حيدر أن العرب يعيشون عصر انحطاط مموه، لذلك فإن عصرهم هذا هو أسوأ عصور الانحطاط جميعاً[٧].

إنه الجرح، وهو جرح عميق أورثنا شعوراً باليأس والعجز والنقص كما قلت، وربما كان هذا الجرح هو القاسم

الأعظم المشترك في كتابات وهموم مفكرينا المعاصرين وتحليلاتهم، فإلى أين سارت تلك الكتابات؟

إنها عند الدكتور غالي شكري إيغال كامل في التشاؤم، بحيث أنه لا يرى بارقة أمل واحدة لنهوض عربي جديد، يقول:

«ربما يسجل التاريخ بعد زمن طويل أن السنوات العشر الأخيرة في حياة العرب المعاصرين كانت أكثر سنواتهم خطورة في العصر الحديث حتى أنها قد لا تقارن بغير مرحلة الانهيار العظيم للدولة الإسلامية الأولى»[٨].

ويرى الدكتور غالي أن ثمة عناصر ثابتة قد شاركت في بناء أزهى عصور الحضارة العربية في صدر الإسلام، وأنها حين غابت بدأت مراحل التحلل والانحدار السحيق، وأن ثمة عناصر ثابتة شاركت في بناء عصر النهضة العربية منذ أكثر من قرن، وأنها حين غابت بدأت هذه المرحلة السوداء الخطيرة التي نعيشها منذ السبعينات من هذا القرن. ويصل الدكتور غالي إلى ضرورة طرح الأسئلة الجديدة المستقاة من تجارب النهضة والسقوط على السواء.

الجرح يصبح أخطر عند بعض المفكرين والكتاب العرب الآخرين، مثلاً برهان غليون يطرح رأياً خطيراً جداً عندما يعلن بصراحة إخفاق الفكرة القومية ذاتها، بينما نجد الدكتور وجيه كوثراني يعود إلى جذور القومية العربية بحثاً عن الخطيئة التي ارتكبت حتى وصل المجتمع العربي المعاصر إلى ما وصل إليه من الإخفاق، ويذهب في النهاية إلى شبه إدانة للجذور نفسها، أي بعبارة أخرى، إلى إدانة القومية العربية في جذورها[٩].

إن بعض الآراء كما رأينا خطيرة، ومن يتتبعها يصل إلى نقطة يتساءل عندها كما فعل جلال فاروق الشريف عما بقي لنا إذا كانت هذه هي صورة الماضي والحاضر والمستقبل[١٠]، وإن كان علينا أن نستسلم أم أن نستمر في البحث مهما كان هذا البحث شاقاً وموجعاً ومكلفاً بنتائجه؟

الجواب بالتأكيد يكمن في الشق الثاني من السؤال، فالوقوع في براثن اليأس ما هو إلا استسلام بشكل أو آخر وتسليم مطلوب منا من قبل الاستعمار والامبريالية بنظرية «السمات العربية» المغرضة والباطلة.

إن المطلوب هو أبحاث وأفعال ميدانية جريئة تضع في اعتبارها حقيقة استعدادات الإنسان العربي لاكتساب سمات شخصية فعالة في عمليات التنمية الحقيقية للوطن العربي إذا ما توافر المناخ الاقتصادي الاجتماعي العام والظروف المشجعة على اكتساب هذه الظروف وبلورتها، هذا بالإضافة إلى حقيقة أخرى راسخة تقول إن الإنسان العربي لديه من السمات الشخصية الإيجابية رصيد هائل، بعضه ظاهر وبعضه الآخر كامن تكون بفعل تراثه الحضاري العريق من جهة، وبفعل صراعه الدائم مع قوى القهر والاستغلال من جهة أخرى، لكن القهر والنهب والاستغلال للوطن العربي منذ بداية الاستعمار وما تلا الاستقلال من تغلغل رأسمالي وفرض للتبعية والتجزئة على الوطن العربي، وتآمر على الإنسان العربي وغزو فكري لعقله وما خلقه كل ذلك من ظروف ونمط حياة عام يتسم بالتخلف، كل ذلك قد أعاق نمو الشخصية لدى الإنسان العربي وأصابها بالتشوه في أوجه عديدة، لذلك فإن أية إستراتيجية للتنمية الشاملة في الوطن العربي لا بد أن تضع شخصية الإنسان العربي في بؤرة اهتمامها، وتواجه ما يعيق نموها وتقدمها إلى ما يجب أن تكون عليه فعلاً.

ـ حلب ـ

(١) أحمد بن محمد يعقوب ـ ت ٤٢١ هـ.

(٢) تجارب الأمم وتعاقب الهمم ـ مختارات للدكتورة أمينة البيطار ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٤.

(٣) يمكن مراجعة مقالة أحمد يوسف داوود «بحثاً عن التاريخ الحقيقي للعرب» مجلة المعرفة العدد ٢٥٠ ـ ١٩٨٢ وفيها يوضح بشكل جريء مدى تلاعب الأوروبيين بحقائق تاريخنا.

(٤) مجلة العلوم الاجتماعية ـ الكويت ـ العدد ٤ ـ ١٩٨٣ ـ التكوين الاقتصادي والاجتماعي وأنماط الشخصية في الوطن العربي ـ سمير نعيم أحمد.

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

(٧) نحو حضارة جديدة ـ أحمد حيدر ـ دمشق ـ ١٩٦٩.

(٨) حول أزمة المجتمع العربي ـ جلال فاروق الشريف ـ مجلة المعرفة ـ العدد ٢٤٨ ـ ١٩٨٢.

(٩) نفس المصدر.

(١٠) نفس المصدر.

الرحلة الخمسون

عيسى حسن الياسري

أحلمُ
وكأيِّ أبٍ يتقدَّم نحو خريف كهولتِه
أن انهض كل صباحٍ مبتهجاً
تغمرني الشمس الطفلةُ
ويرفُّ أمامي سربٌ من أيامٍ هادئةٍ
أحلمُ
أن أشرع أحضاني
وأضمَّ إلى صدري أولادي
أن نتبادل أرغفة الخبز
ونشرب شاي الصبح
ثم يقبِّل كلٌّ منا الآخر
ونغادر تحت سماءٍ صافيةٍ
الأبناءُ إلى الدرس . . وأنا إلى عملي
والزوجة تتولى ترتيب البيت .

أحلمُ
وكأيِّ أبٍ
حين أموت من الحبِ
أو التعب القاسي
ألاَّ يتشرَّد أولادي
فالليلة أعبر عامي الخمسين
وما زلتُ أعلّل امرأتي
يا امرأتي . . لا بأس عليكْ
فأنا أشعر . . أن أمامي بضع سنينٍ قادمةٍ
وسأجعل منكِ امرأةً
تملك بيتاً . .

وسريراً للنوم
وطاولة متواضعة
تؤوي زوجك . . لحظة يرحل صوب قراه الأولى منتحباً
آو يا امرأتي
أعرف أنّك آسفة هذي اللحظة
كنتِ نذرتِ
إذ تفترشين طراوة قلبي دون صبيّات القريةِ
أن تعطي لأئمّتها قرطِيكِ الفضّيين
فمعذرة
أنت امرأة عاثرة الحظّ
فهذا الطفلُ . . تغادره الآن وسامتهُ
وما تتعَشّقه فيه المرأةُ
إني أحلم حلماً مجنوناً
منذ ولدتُ . . وأنا أحلم حلماً مجنوناً
أن أصنع أرضاً لا منفىً فيها
وجنوباً مأهولاً . . بالخبز . . وبالمعشوقاتِ . .
وأقراط الفضةِ
معذرةً يا امرأتي .
هذا الطفل الحالم منذ طفولته .
ماذا يملك بعد عبور العام الخمسين سوىٰ أن يحلمَ
أنت امرأة طيّبةٌ . . وأنا طفل طيّب
ولنا أولاد في ذات الطيبةِ
فلننس البيتَ . . وقرطِيكِ الفضّيين
ودعينا نحلم . . أن نصنع أرضاً لا منفىٰ فيها
وعيوناً لا يطفئها الخوف .

العراق . .

البحر يصدّر للعالم سفن العشاق

وأطل يلوحّ بالكفين
نسراً
تشتعل الأحداق على شرفته
الجبلية
فيقوم العشب
وخيط الشمس
وجدول أسماء القتلى
تسجد للكلمات المقروءة
والمسموعة
والمرئية
قل....
مَنْ عسكر في ضاحية
الأشجار
وضيّق سبل العيشِ
على الطرق السالكة
الممنوعة
والـ.....
ما بين الاثنين
الوسط...
أقسم بالأوراق البيضاء
حمامة قلبي
وأنا أضحك في وجه
الأطفال
أمقت أن تخفق
سارية الوسط
على قمم المسحوقين
أصحاب الأقساط اليوميّة
والشهرية والسنوية

والـ....
أعرفه
وأجول بخاطره المسكين
شرارة صمت
أرفع كأس السم
طواعية
سقراطُ مات
ولم تسقط
مدرسة أسّسها المنطق
والعقل
سحابة صيف عابرة
نزفت في موقده الجمريّ
ساقية من بين طلول الصخر
انبجست عيناها
تعرفه...
وتقول أمام حشود الناس
بشطريها
الحضر... البدو
نعم أعرفه...
وتمرّ على الجسد العريان
سوى من كسرة قطن
وإذا شئت قماشة طفلٍ
بليت من تجوال سواعده الغضّة
عافية الأفراح السنوية
تعرفه...
ويردّ الجسد المستلقي
فوق بساط الجذع الشجري
السامق مدفأة
نعم أعرفه...
أعرف فيه الأرض
وقد أجّجها المحراث
فشبّت
تمطر أغصان الحقل ثماراً
في وجنتها القمرية
يسكن عشق كنعانيّ

أعرف فيه الأنهار
وقد سمحت حوريّات المطر
لمجراها
أن يشرع نافذة للمطلق
قوساً
يسند ظهر العالم
فوق الكتفين
وتمرّ على الجسد العابق
باللون الأحمر
لا أقصده مقتولاً
تقصده...؟
لا أقصده أيضاً
ويحرك من قامته الأسطورية
شفة
تتقن أبسط لغة يعرفها
الفلاّحون، العمال، صغار الكسبة
أعرفه... وأقول لكم:
ما بين الحطبة تغلي
في موقد قريتنا
فيؤجّ الشرر الجمري دراكاً
والغرسة تفصح عن قامتها.
الجبلية رشّاً
أرجوحة قلب
ما بين الساعة
والعقرب في القفص البلّوريّ
يشير إلى الرقم الصفر
وسقط متاعَ السابلة
من الأوراق يهشّ
، صاصة موت
أعرفه.... وأقول لكم:
لا أعرفه
وتجيء من القارورة
دفقة حمّى مرهقة
تعرفه..
وتقول أمام حشود الناس

بشطريها. . الحضر. . . البدو
نعم أعرفه. . . أعرفه
وإذا شئتم
والروح تيمّم شطر المطلق
أيضاً أعرفه
اسم تخجل قائمة الأسماء
أخصّ العربية وهي تفتّش
عن صيد
أن تنبس حرفاً في صومعته
رقم تصغر كل الأرقام
أمام طلاقته
طقس لا تسمع أشواق مواجده
الأوراق
وأسطحة القلب
وسيف أشعله المقبض
مرّ على الجسد المسفوك
دماء
قبلات
أرصفة
يستجدي في حضرتها الله
زبانية جهنم
تعرفه
قُلْها
قبل فوات الساعات
وعانق أفراح الزوجة
والأولاد الرضّع
والسقف السادر ولهاً
إلّا من رشقات القصف الجويّ
الرعد الشتويّ
لا أعرفه. . .
وغلاء فلسطين بقلبي
أعرفه. . . وأقول لكم:
لا أعرفه
وتجيء الصاعقة الأولى
فتصمّ ـ من الجسد المستشري
رائحة كشواء الحارات
الشعبيّة ـ أذناً. . .
كانت تلتقط بقايا ذبذبة
الأصوات الليلية
في أقصى حالات الرصد
العاشق
لا أعرفه. . .
وتجيء الصاعقة الأخرى
فتشلّ من الجسد المصبوغ
بحمرته الشفقية
أصبعة
تتقن لفظتها اللائية
وتجيء الصاعقة الرابعة،
الخامسة، السابعة، الألف
أخطأت من الأرقام العدّ
أقول: العدد
ومن الفرحة طلّتها الشمسية
في فصل طفولتي الأولى
وتجيء الصاعقة الموقف
يجأر في صلف
قف
أعرفه. . .
رجل من أرض فلسطين
اللوحة لا أرشق في عينيه
حركات اللون
سموّ الخط
طلاقة مبسمه الرافض
مستندات الأرجل
والقابض على رجليه
وعصر السَفَلة
يتوالد كدجاج القرية
جوهرة
أرقى من قسمات القمر
على سفح الأفق الشرقيّ
مساءً
أقسم بالمشهد
والمشهد أصعب أن يوصف
بالعين مجرّدة
أو بالمجهر
الماء بلا استئذان
من قصبات المرجلِ
صفق
الصرخة أكبر من
ملكوت الصالة
اختلطت أسماء التقويم
لتصحو القرية
والحقل وقد أرقه القحط
فلاة
تملؤها الجثث البشرية
والجمر المطفأ
والصرخات الاسفلتية
وسطور تشرع للجبل
المورق شبّاكاً
وحريق لا يفهم
حتى القارىء دمعته
لن يختنق الزنبق
في ساحلنا الموجيّ
ما دام البحر يصدّر
للعالم سفن العشاق
ما دام البحر يصدّر
للعالم سفن العشاق

محمود علي السعيد

وفي النهاية تصل الصحافية الايطالية إلى قرار تقول فيه (إن أروع نصب شاهدته على تلال (بيلوبونيسوس) في اليونان ليس تمثالاً منحوتاً أو علماً مرفوعاً إنه ثلاثة حروف باللغة اليونانية (أو ـ أكس ـ آي) وتعني «لا» كتبها أبطال متعطّشون للحرية خلال الغزو النازي الفاشستي ثم لطخها بالأصباغ رجال السلطة أثناء الغزو العسكري لليونان. ولكن الطبيعة بشمسها وأمطارها ورياحها ساعدت على إعادة تلك الحروف إلى الظهور مرة أخرى قوية عنيدة. . .)

أوريانا فالاتشي ـ

بودلير يكتب عن ادغار ألن بو

قصة "القط الأسود"

ترجمة خالدة سعيد

مقدّمة بودلير

كتب الشاعر الفرنسي ألفرد دي فيني كتاباً خاصاً لكي يبرهن فيه أنّ الشاعر لا يستطيع أن يجد له مركزاً أو مكاناً جيداً في أي مجتمع، سواء كان ديموقراطياً أو أرستوقراطياً، جمهورياً أو ملكياً.

في هذه الفكرة الكثير من الصحّة. ولئن كانت الذّاكرة تعوزنا أحياناً لاستحضار الأمثلة من التاريخ، فإن الحاضر الذي نعيشه يقدّم لنا المزيد منها ويغنينا عن التذكر.

إدغار آلن بو، أحد الأمثلة.

إنّ حياة الشاعر وعاداته وسلوكه وكيانه الجسمي وما يشكل مجموع شخصيّته - هذا كله يبدو لنا شيئاً مُعتماً ومشعاً في آن واحد. كانت شخصيّته فريدة آسرة، تتميّز، مثل نتاجه، بطابعٍ من الكآبة لا حدود له. ورغم أنه كان صغير البنية، مُرهف الملامح، فقد كان أكثر من قويّ وكان البأسُ يتفجّر من قسماته. كأنّ الطبيعة تمنح مزاجاً حيوياً شديداً لهؤلاء الذين تريد أن تأخذ منهم الأشياء الكبيرة، كما تمنح الحيوية الهائلة للأشجار التي قدر لها أن ترمز إلى الحداد والألم.

كان سلوكه مزيجاً غريباً من الكبرياء والعذوبة الوادعة، وكل شيء فيه يشير إلى أنه كائنٌ مصطفى. كان أشبه بهؤلاء الذين يعبرون فيجذبون أعين الذين يرونهم ويملأون ذاكرتهم. وربما يجهل الكثيرون أنه كان يمتاز بحساسية مدهشة اختُصَّت بها المرأة الفرنسية، فكان يعرف أن يتزين بلا شيء، ويعرف أن يحوّل الكوخ إلى قصرٍ من نوعٍ جديد. ثمّ، ألم يضع، بأصالةٍ وتفرد، مشاريع كثيرة لزخرفة البيوت وتأثيثها، وتصاميم لبيوت ريفية وحدائق، ومخططات لتحسين الريف وتجميله؟

تقول السيدة فرانسيس أوزغود F. Osgood إحدى صديقاته في رسالة لها: «لم تتعرّف عليه امرأةٌ إلا أحست بجاذب عميق نحوه. وكنت أراه دائماً مثالاً للأناقة والامتياز وشرف النفس». وتحدثت عن لقائهما الأول حين طلب إليها رأيها في قصيدته - «الغراب» فقالت: «الموسيقى الخفيّة الساحرة في هذه القصيدة الفريدة نفذت إلى أعماقي حتى أنني حينما عرفتُ أنه كان يرغب في إهدائها إليّ، أحسستُ بشعور غريب يُشبه الرعب. وأقبل، برأسه الجميل الشامخ، وعينيه الكئيبتين المليئتين بنور فريد - من الفكر والعاطفة، وهيئته الوديعة المتعالية في آنٍ واحد وبشكل لا يُفسَّر؛ - حيّاني هادئاً، رصيناً، بارداً تقريباً؛ لكن، تحت هذه البرودة، كان يتململُ تعاطفٌ واضحٌ أثر فيّ أعمق التأثير. وصرنا صديقين منذ هذه اللحظة حتى موته...

«... ظهرت لي شخصيته بأبهى أضوائها، في دخيلته البسيطة الشعرية معاً. كان مَرِحاً، عاطفياً، روحيّ النزعة، وديعاً تارةً شيطاناً تارةً كطفلٍ مدلل؛ ... أما بالنسبة للحب، فأعتقد أن زوجته هي المرأة الوحيدة التي أحبّها حبّاً حقيقياً دائماً».

ليس في قصص (بو) حبٌّ، بالمعنى الخالص لهذه الكلمة. لعله كان يعتقد أن النثر ليس لغةً في مستوى هذه العاطفة

(*) رأينا لمناسبة هذه الترجمة العربية لبعض آثار إدغار آلن بو، أن بودلير هو أفضل من يقدمه للقراء العرب؛ ونثبت هنا مقاطع من مقدمة كتبها الشاعر الفرنسي الكبير بعنوان «إدغار بو، حياته وأعماله» حين قام بترجمة هذه الأعمال إلى الفرنسية.

الخارقة التي يكاد يستحيل التعبير عنها؛ ذلك أن شعره، على النقيض، مُشبعٌ مليءٌ بالحب. الحب في شعره رائع، مكوكب، تغطيه دائماً كآبة لا شفاء منها. وفي جنّة أرنهايم (آخر قصة في هذه المختارات) يؤكد أن الشروط الأولية الأربعة للسعادة هي: الحب، الحياة في الهواء الطلق، التخلص من كل طموح، وخلق جمال جديد. فليس في نتاجه كله، رغم موهبته المعجزة في المرعب والمضحك، فقرة واحدة تتصل بالدعارة أو حتى بلذات الجسد. والصور التي يقدمها عن النساء، صور تحيط بها الهالات؛ إنها مرسومة بلهفة المتعبد ولهجته، مغمورة بضبابٍ سماويٍّ شفّافٍ.

أما عن السُّكْر الذي أثر عنه وانتقد عليه كثيراً، فيقول الذين كانوا يعرفونه حقَّ المعرفة إن كمية قليلة من الخمر أو الشراب كانت تكفي للتأثير فيه. ويسهل، من ناحية ثانية، الافتراض أن شاعراً عاش في مثل وحدته وشقائه الهائلين، يبحث أحياناً عن لذة النسيان في الشراب. الأحقاد والشتائم الأدبية، دُوار اللانهاية، آلام الحياة اليومية، مشاكل البؤس ـ من هذا كله كان يهرب إلى سواد السُّكر، إلى ما يشبه القبر التمهيدي. وهو لم يكن يشرب كما يفعل الكحوليّ المنهوم، بل كما يشرب الرجل الخشن القاسي بنشاط واقتصاد في الوقت، كما لو أن في داخله شيئاً يريد أن يقتله. ثم إن صفاء أسلوبه وإحكامه، ووضوح تفكيره، وحماسه للعمل ـ هذا كله لم يكن يتأثر إطلاقاً بعادة سُكره.

أكيد أنه ليس في السكر تتابع أحلام وحسب، بل أيضاً سلسلة من الأحكام التي تحتاج، كي تظهر ثانية وتتكاثر، إلى الوسط الذي نبحث عنه. أريد أن أقول إن سكر (بو) كان في حالات كثيرة وسيلة للتذكر، ومنهج عمل؛ وكان هذا المنهج خلّاقاً ومميتاً، لكنه كان يلائم طبيعته الجامحة. فلقد اهتمَّ أن يشرب، كما يهتم الأديب الكثير التدقيق بتدوين يومياته وملاحظاته. كان يعجز أن يقاوم رغبته وشوقه إلى الالتقاء بعوالم الرؤى العجيبة والتصورات البالغة النعومة واللطف، ممّا رآه في عاصفة ماضية؛ كانت هذه المعارف والصداقات القديمة تجذبه إليها بطغيان، وكان يسلك إليها الطريق الأكثر خطراً، لكن الأكثر استقامة. إن جزءاً مما يخلق سرورنا واستمتاعنا اليوم، هو نفسه الذي أماته.

ولد إدغار آلن بو في بوسطن عام ١٨١١. كانت أمه ممثلة إنكليزية هرب معها أبوه وتزوَّجها، ثم أصبح ممثلاً، وظهر مع زوجته على عدّة مسارح. مات الزوجان في آن واحد تقريباً، تاركين للفقر المدقع ثلاثة أطفال بينهم إدغار آلن بو. كان جميل الملامح، نحيلاً، شاحب اللون. تبنته فرانسيس آلان، زوجة تاجر غنيّ اسمه جون آلان، كان بخيلاً وقاسياً. أخذاه معهما في رحلة إلى إنكلترا وإيكوسيا وإيرلندا. ثم تركاه عند الدكتور برانسبي الذي كان يدير معهداً تربوياً في بلدة قرب لندن. وقد وصف (بو) هذا المعهد في قصته «وليم ولسن». وحين ترك هذا المعهد التحق بجامعة في ريتشموند، فتميَّز بذكائه المعجز وغرابة شخصيته. وقد اعتبر والده بالتبنّي هذه الغرابة سلوكاً سيئاً وقطع عنه المعونة المالية، فاضطرَّ إلى ترك الجامعة.

اشترك، في أشدّ فترات بؤسه، في مسابقتين للشعر والقصة وقد فاز بجائزتيهما، إلا أنه لم يمنح غير جائزة واحدة. وقد أبدى رئيس اللجنة رغبته بالتعرف إليه، ثم ساعده فأوجد له عملاً في إحدى المجلات الصادرة في ريتشموند. هكذا وجد نفسه، وهو في الثانية والعشرين من عمره، مديراً لمجلة أدبية ومسؤولاً عنها. وقد أدهش قراءه بسلسلة من قصصه ذات النوع الجديد، ومقالاته النقدية الجريئة، الواضحة الصارمة، مما دفع المجلة في طريق التقدم والشهرة. ورغم ذلك اختلف (بو) مع صاحب المجلة، فتركها وكان قد تزوج، وأخذ يشرد مع زوجته الفتية من مكان إلى آخر. وبعد أن ماتت زوجته اشتدت عليه وطأة العذاب والبؤس حتى مات.

ماذا أقول عن نتاج هذا العبقري المفرد؟ طالما قيل عنه: «أدب انحطاط!» هذا قول فارغ نسمعه كثيراً يسقط مع رنين التثاؤب المنتفخ في أفواه الكائنات السفنكسية التي لا سرّ فيها والتي تسهر على الأبواب المقدسة في ممالك الجمالية الكلاسيكية. ليسمح لي هؤلاء الحكماء أن أسألهم إذا كانوا يدركون بطلان حكمتهم وعدم جدواها. «أدب انحطاط»، عبارة تضمر وجود سلّم من الأنواع الأدبية ـ أدب ولادة، أدب طفولة، أدب مراهقة... ألخ؛ أعني أن هذه العبارة تفترض في الأدب وتطوره نوعاً من الحتمية والعناية الإلّهية.

هذه الشمس التي كانت، منذ هنيهة، تصعق الأشياء كلها بنورها الأبيض المستقيم، ستغمر، بعد قليل، الأفق الغربي بألوانٍ من كل نوع. بعض الشعراء يجدون لذة جديدة في لعب هذه الشمس التي تموت؛ يكتشفون فيه صفوفاً أخّاذة من الأعمدة، وشلالات من المعدن الذائب، وجنّات من النار، وبهاء حزيناً، وغبطة ندم، وطلاسم حلم، وذكريات أفيون. ويبدو لهم غروب الشمس أشبه بروح مليئة مثقلة بالحياة تهبط

وراء الأفق حاملة ذخراً هائلاً من الأحلام والخواطر. هذا ما لم يفكر فيه الأساتذة السفنكسيون؛ فمثل هذا التعقد في حركة الحياة، وهذا التوافق الغريب الممكن، وهذا الجديد ـ لا يعني شيئاً لحكمة التّلمذ، وروح المدرسة.

المخيلة عند إدغار آلن بو هي ملكة الطاقات الروحية. لكنه يعني بهذه الكلمة شيئاً أعظم مما يعرفه عامة القراء. ليست المخيلة التوهم؛ ليست كذلك الحساسية وإن كان صعباً تصور إنسان خياليّ غير حساس. المخيلة طاقة شبه إلَهية، تكتشف، بعيداً عن المناهج الفلسفية وخارجها، العلائق الحميمة بين الأشياء، وأسرارها وتطابقها وتجانسها. وهو يمنح لهذه الطاقة أهمية ووظيفة إلى درجة أن العالم الذي يخلو منها عالم مزيف أو على الأقل، عالم ناقص.

تحقّق المخيِّلة أغرب النتائج، وتجني الكنوز ـ لا الأغنى والأثمن (فهذه وقفٌ على الشعر) بل الأكثر عدداً وتنوعاً، في القصَّة القصيرة. إن (بو) يؤثرها على القصَّة الطويلة، لكثافة تأثيرها وكلّيته ووحدة الانطباع الذي تولّده؛ ـ حتى أن الأقصوصة تفضل، من هذه الناحية، القصة القصيرة. الإيقاع ضروري لنمو فكرة الجمال، التي هي هدف القصيدة الأكبر والأسمى. لكن حيل الإيقاع عقبةٌ في وجه هذا النمو الدقيق للأفكار والتعابير التي تتخذ الحقيقة موضوعاً لها. وكثيراً ما تكون الحقيقة هدف القصة القصيرة؛ والتعليل هو أفضل أداة لبناء قصة قصيرة كاملة. لهذا يقدر هذا النوع الأدبي، غير المهيَّأ لعلوٍّ عظيم كعلو الشعر الخالص، أن يقدم نتاجاً أكثر تنوعاً وقابلية للانتشار. نضيف إلى ذلك أن كاتب القصة القصيرة يمتلك عدداً كبيراً من الإمكانيات التعبيرية لا تصحّ في الشعر الخالص.

ليس إدغار آلن بو كبيراً، بعدته الأدبية المعجزة وحسب، بل أيضاً بحبه للجميل، وإدراكه شروط انسجام الجمال، وبشعره العميق الحزين، الشفاف المحكم كالجوهرة، وبأسلوبه العجيب الصَّافي الخارق المسرود كالدِّرع، السهل الممتنع الذي يهدف، أول ما يهدف، إلى دفع القارىء بليونة ويُسر نحو الهدف المقرر؛ أخيراً، على الخصوص، بهذه العبقرية التي لا مثيل لها، وهذا المزاج الفريد الذي أتاح له أن يصور بطريقة، فائقة، آسرة، مرعبة ـ كل ما هو غريبٌ واستثنائي في نظام الحياة والفكر.

يدخل القارىء إلى عالمه كما يدخل إلى دوَّامة، بهدوء ودون عنف. إن زهوه يفاجىء ويترك الفكر في يقظة. نشعر أوّلاً أن ثمة شيئاً جليلاً. ثم تتعرض رويداً رويداً، قصة تكمن لذاتها كلها في زيغان الذهن زيغاناً لا يُدرك، في تصور غير منتظر، في فرضيَّة جريئة، في تهور بين مزالق الطبيعة ـ وهذا كله يجري في مزيج غريب من الطاقات الروحية الغريبة. وإذ يتحد القارىء بهذا الدُّوار يُضطر إلى متابعة الكاتب في سرده القصصي الجذّاب.

لم يتحدث أي إنسان بسحر أروع من سحر حديثه عن الاستثناءات والمفارقات في الحياة الإنسانية وفي الطبيعة: ـ نهايات الفصول المثقلة بالبهاء المُسكر؛ الساعات الدافئة، الرطبة الضبابية حيث الريح الجنوبية تُرخي الأعصاب كالحبال، وحيث تمتلىء العيون بدمع لا يأتي من القلب؛ التهاويل التي تفتح الطريق أولاً للشك، ثم لا تلبث أن تصير مقنعة، مليئة بالبراهين كالكتاب؛ العبث الذي يسكن في البصيرة ويحكمها وفق منطق رهيب؛ التهيج العصبي الذي يغتصب الإرادة ويذللها؛ التناقض القائم بين الأعصاب والفكر؛ الإنسان المتصدّع إلى درجة التعبير عن الألم بالضَّحك. إنه يحلّل أكثر الأشياء هروباً وتفلتاً من التحليل، يزن ما لا يُوزن، يصف بطريقة محكمة وعلمية مخيفة، هذا العالم الخيالي الذي يتموَّج حول الإنسان العصبي ويتحكم به ويقوده. إن إدغار آلن بو، شأنه في ذلك شأن دولاكروا الذي ارتفع بفنّه إلى مستوى الشعر العظيم، يحبّ أن يحرك أشكاله على أرض بنفسجية وخضراء حيث يتجلّى وميض العفن ورائحة العاصفة. الطبيعة المسماة ميتة، تشارك طبيعة الكائنات الحية؛ ومثلها ترتعش رعشة كهربائية خارقة. الأفيون يعمّق الفضاء، يعطي معنى سحرياً للاصباغ ويجعل الأصوات تهتزّ برنين أكثر دلالة. وكثيراً ما تفاجئنا فلتاتٌ رائعة من الكلام والضوء واللون في ما يقدمه لنا. ونلمح بغتة مدناً شرقية وهندسات تظهر في أقاصي آفاقه، ضبابية على البُعد، حيث الشمس تمطر الذَّهب، وحيث الغرابةُ جزءٌ من الجميل لا يتجزَّأ.

هذا الشخص الذي اجتاز الأعالي الفنية الوعرة، وغاص في مهاوي الفكر الإنساني، واكتشف، عبر حياته الشبيهة بالعاصفة التي لم تهدأ، طرائق جديدة وأشكالاً مجهولة، لكي يدهش الخيال ويروّي العقول الظامئة أبداً إلى الجمال؛ ـ هذا الشخص مات فوق أحد المقاعد في الشارع، عام ١٨٤٩، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً.

(عن الفرنسية)

لست أتوقع منكم، بل لست أطلب أن تصدّقوا الوقائع التي أسطّرها هنا لقصة هي أغرب القصص وإن كانت في الآن عينه مألوفة للغاية. سوف أكون مجنوناً لو توقعت أن تصدقوا ذلك، لأن حواسّي ذاتها ترفض أن تصدق ما شهدته ولمسته. غير أنني لست مجنوناً - ومن المؤكد أنني لا أحلم. وإذا كنت ملاقياً حتفي غداً فلا بدَّ لي من أن أزيح هذا العبء عن روحي.

ما أرمي إليه هو أن أبسط أمام العالم، بوضوح ودقة، وبلا أي تعليق، سلسلة من الوقائع العادية جداً. إنها الوقائع التي عصفت بي أهوالها - واصلت تعذيبي - ودمرتني. مع ذلك لن أحاول تفسيرها. وإذا كنت لا أجد فيها غير الرعب فإنها لن تبدو للآخرين مرعبة بقدر ما ستبدو نوعاً من الخيال الغرائبي المعقد. قد يجيء في مقبل الأيام ألمعيّ حصيف يبيّن له تفكيره أنَّ هذا الكابوس مجرد أحداث عادية - وربما جاء ألمعيٌّ آخر أكثر رصانة وأرسخ منطقاً، وتفكيره أقل استعداداً للإثارة من تفكيري، ليرى في الأحداث التي أعرضها بهلع مجرد تعاقب مألوف لأسباب طبيعية ونتائجها المنطقية.

عُرفت منذ طفولتي بوداعتي ومزاجي الإنساني الرقيق، حتى أنَّ رقة قلبي كانت على درجة من الإفراط جعلتني موضوع تندّر بين زملائي. وقد تميّزتُ بولع خاص بالحيوانات مما جعل أبويّ يعبّران عن تدليلهما لي بإهدائي أنواعاً من الحيوانات المنزلية. مع هذه الحيوانات كنت أمضي معظم أوقاتي - ولم أعرف سعادة تفوق سعادتي حين كنت أطعمها وأداعبها. نمت هذه الطباع الغريبة مع نموّي، وكانت لي في طور الرجولة أكبر منابع المتعة. الذين عرفوا مشاعر الولع بكلب أمين ذكي سوف يفهمون بسهولة ما أود قوله عن مدى البهجة المستمدَّة من العناية بحيوان أليف. إنَّ في تعلّق الحيوان بصاحبه تعلّقاً ينكر الذات ويضحي بها ما يخترق قلب الإنسان الذي هيأت له الظروف أن يعاني من خسة الصداقة وضعف الوفاء عند الجنس البشري.

تزوجت في سنّ مبكرة، وقد أسعدني أن أجد في مزاج زوجتي ما لا يناقض مزاجي. وإذ لاحظت ولعي بالحيوانات المنزلية لم تترك مناسبة تمرّ دون أن تقتني منها الأجناس الأكثر امتاعاً وإيناساً. هكذا تجمَّع لدينا طيور وأسماك ذهبية، وكلب أصيل وأرانب وقرد صغير وقط.

كان هذا القط كبير الحجم بشكل مميّز، جميل الشكل، أسود اللون بتمامه، وعلى قدر عجيب من الذكاء. كانت زوجتي التي لا أثر للمعتقدات الخرافية في تفكيرها، حين تتحدث عن ذكائه، تشير إلى الحكايات الشعبية القديمة التي تعتبر القطط السود سَحَرَةً متنكرين. هذه الإشارات لا تعني أنها كانت، في يوم من الأيام، جادَّة حول هذه المسألة. أذكر هذا الآن لسبب وحيد هو أنه لم يرد إلى ذهني قبل هذه اللحظة.

كان بلوتو - وهذا هو اسم القط - حيواني المدلل وأنيسي المفضل. أطعمه بنفسي، ويلازمني حيثما تحركت في البيت. بل كنت أجد صعوبة لمنعه من اللحاق بي في الشوارع.

دامت صداقتنا على هذه الحال سنوات عديدة، تبدّل خلالها مزاجي وساء سلوكي بفعل الإدمان على المسكرات - (إني أحمرّ خجلاً إذ أعترف بذلك) - ويوماً بعد يوم تزايدت حدة مزاجي وشراستي، واستعدادي للهيجان. وتزايد استهتاري بمشاعر الآخرين. ولكم عانيت وتألمت بسبب التعابير القاسية التي رحت أوجهها إلى زوجتي. حتى أنني في النهاية لجأت إلى العنف الجسدي في التعامل معها. وبالطبع فقد استشعرت حيواناتي هذا التغيّر في مزاجي. ولم أكتفِ بإهمالها، بل أسأت معاملتها. وإذا كان قد بقي لبلوتو بعض الاعتبار مما حال دون إساءتي إليه، فإنني لم أستشعر إثماً في الاساءة إلى الأرانب أو القرد، أو حتى إلى الكلب، كلما إقتربت مني مصادفة أو بدافع عاطفي. غير أنَّ مرضي قد تغلب عليَّ - وأي مرض كالمسكرات! - ومع الأيام حتى بلوتو، الذي صار هرماً، ومن ثمَّ عنيداً نكداً - حتى بلوتو بدأ يعاني من نتائج مزاجي المعتلّ.

ذات ليل كنت عائداً إلى البيت من البلدة التي كثر ترددي إليها وقد تعتعني السكر؛ وخيِّل إليَّ أنَّ القط يتجنب حضوري، فقبضت عليه؛ وإذ أفزعته حركاتي العنيفة جرحني بأسنانه جرحاً طفيفاً، فتملكني غضب الأبالسة. وبدا أنَّ روحي القديمة قد اندفعت على الفور طائرة من جسدي، وارتعد كل عرق في هيكلي بفعل حقد شيطاني غذّاه المخدّر. فتناولت من جيب سترتي مطواة، فتحتها، وقبضت على عنق الحيوان المسكين واقتلعت عامداً إحدى عينيه من محجرها! إنني أحتقن، أحترق، أرتعد حين أكتب تفاصيل هذه الفظاعة الجهنمية.

لمَّا استعدت رشدي في الصباح ـ لمَّا نوَّمت هياج الفسوق الذي شهده الليل ـ عانيت شعوراً هو مزيج من الرعب والندم بسبب الجريمة التي ارتكبتها، غير أنَّ ذلك كان في أحسن الحالات شعوراً ضعيفاً وملتبساً لم يبلغ منّي الأعماق. ومن جديد استحوذ عليَّ الإفراط في الشراب. وسرعان ما أغرقت الخمرة كل ذكرى لتلك الواقعة.

في هذه الأثناء أخذ القط يتماثل للشفاء تدريجياً. صحيح أن تجويف العين الفارغ كان يشكّل منظراً مخيفاً، لكن لم يبد عليه أنه يتألم. وعاد يتنقل في البيت كسابق عهده، غير أنَّه، كما هو متوقَّع، كان ينطلق وقد استبدَّ به الذعر كلما اقتربت منه. كانت ما تزال لديَّ بقايا من القلب القديم بحيث ينتابني الحزن إزاء هذه الكراهية الصارخة يبديها لي كائن أحبَّني ذات يوم. لكن سرعان ما حلَّ الإنزعاج محلّ الحزن. وأخيراً جاءت روح الانحراف لتدفعني إلى السقوط الذي لا نهوض منه. هذه الروح لا توليها الفلسفة أي اعتبار. مع ذلك لست واثقاً من وجود روحي في الحياة أكثر من ثقتي أن الانحراف واحد من النوازع البدئية في القلب البشري ـ واحد من الملكات أو المشاعر الأصيلة التي توجه سلوك الإنسان. من منّا لم يضبط نفسه عشرات المرَّات وهو يقترف إثماً أو حماقة لا لسبب غير كون هذا العمل محرَّماً؟ أليس لدينا ميل دائم، حتى في أحسن حالات وعينا، إلى خرق ما يعرف بالقانون لمجرد علمنا بأنه قانون؟ روح الانحراف هذه، هي التي تحرَّكت تدفعني إلى السقوط النهائي. إنها رغبة النفس الدفينة لمشاكسة ذاتها ـ لتهشيم طبيعتها ذاتها ـ لاقتراف الإثم لوجه الإثم ـ هذه الرغبة التي لا يسبر غورها هي التي حرضتني على مواصلة الأذى ضد الحيوان الأعزل، وأخيراً الإجهاز عليه. فذات صباح، وعن سابق تصوّر وتصميم لففت حول عنقه أنشوطة وعلقته بغصن شجرة ـ شنقته والدموع تتدفق من عيني، وفي قلبي تضطرم أمرّ مشاعر الندم؛ ـ شنقته لعلمي أنني بذلك أقترف خطيئة ـ خطيئة مميتة سوف تعرض روحي الخالدة للهلاك الأبدي، وتنزلها ـ إن كان أمر كهذا معقولاً ـ حيث لا تبلغها رحمة أرحم الراحمين والمنتقم الجبَّار.

في الليلة التي وقع فيها هذا الفعل الشنيع، استيقظت من النوم على صوت النيران. كان اللهب يلتهم ستائر سريري والبيت بكامله يشتعل. ولم ننج أنا وزوجتي والخادم من الهلاك إلا بصعوبة كبيرة. كان الدَّمار تامًّا. ابتلعت النيران كل ما أملك في هذه الدنيا، واستسلمت مذ ذاك للقنوط واليأس.

لم يبلغ بي الضعف مبلغاً يجعلني أسعى لإقامة علاقة السبب والنتيجة بين الفظاعة التي ارتكبتها والكارثة التي حلَّت بي. لكنني أقدّم سلسلة من الوقائع ـ وآمل ألاَّ أترك أي حلقة مفقودة في هذا التسلسل. في اليوم الذي أعقب الحريق ذهبت أزور الأنقاض. كانت الجدران جميعها قد تهاوت باستثناء جدار واحد. هذا الجدار الذي نجا بمفرده لم يكن سميكاً لأنه جدار داخلي يفصل بين الحجرات ويقع في وسط البيت، وإليه كان يستند سريري من جهة الرأس. وقد صمد طلاء هذا الجدار وتجصيصه أمام فعل النيران ـ وهو أمر عزوته إلى كون التجصيص حديثاً. أمام هذا الجدار كان يتجمهر حشد من الناس، وبدا أن عدداً كبيراً منهم يتفحَّص جانباً مخصوصاً منه باهتمام شديد. فحرَّكت فضولي تعابير تصدر عن هذا الحشد من نوع «عجيب!» «غريب!»؛ دنوت، لأرى رسماً على الجدار الأبيض كأنه حفر نافر يمثل قطاً عملاقاً. كان الحفر مدهشاً بدقته ووضوحه، وبدا حبل يلتف حول عنق الحيوان.

عندما وقع نظري لأول مرة على هذا الشبح ـ إذ لم أكن أستطيع أن أعتبره أقلَّ من ذلك ـ استبد بي أشدّ العجب وأفظع الذعر. غير أنَّ التفكير المحلل جاء ينقذني من ذلك. لقد كان القط، على ما أذكر، معلّقاً في حديقة متاخمة للبيت؛ فلما ارتفعت صيحات التحذير من النار، غصت الحديقة فوراً بالناس ـ ولا بدَّ أن شخصاً ما قد انتزعه من الشجرة وقذف به عبر النافذة إلى غرفتي. وربما كان القصد من ذلك تنبيهي من النوم. ولا بدّ أنَّ سقوط الجدران الأخرى قد ضغط ضحية وحشيتي على مادة الجصّ الحديث الطلاء؛ إختلط كلس هذا الطلاء بالنشادر المتصاعد من الجثة وتفاعل به بتأثير النيران فأحدثت الرسم النافر الذي رأيته.

ومع أنني قدمت هذا التفسير لأريح عقلي ـ إن لم أكن قد فعلت ذلك لأريح ضميري ـ فإن المشهد الغريب الذي وصفته لم يتوقف عن التأثير في مخيلتي. وعلى مدى أشهر لم أستطع أن أتخلص من هاجس القط؛ خلال هذه الفترة عاودني شعور بدا لي أنه الندم، ولم يكن في الحقيقة كذلك. لم يكن أكثر من أسف على فقد حيوان، وتفكير بالحصول على بديل من النوع نفسه والشكل نفسه ليحل محله.

في إحدى الليالي، فيما كنت جالساً، شبه مخبول، في وكر من أوكار العار - إذ إنني أدمنت الآن ارتياد هذه الأماكن الموبوءة - جذب انتباهي فجأة شيء أسود فوق برميل ضخم من براميل الجن أو شراب الروم، البراميل التي تشكل قطع الأثاث الرئيسية في ذلك المكان. كنت طوال دقائق أحدّق بثبات في رأس البرميل، وما سبّب دهشتي هو أنني لم أتبيّن للحال طبيعة الشيء الواقف فوقه. دنوت ولمسته بيدي. كان قطاً أسود - قطاً كبيراً جداً - في حجم بلوتو ويشبهه تماماً باستثناء شيء واحد. إذ لم تكن في أي مكان من جسم بلوتو شعرة بيضاء واحدة؛ وكانت لهذا القط بقعة بيضاء غير واضحة الحدود تتوزع على منطقة الصدر بكاملها.

حالما لمسته نهض وأخذ يخط بصوت مرتفع ويتمسّح بيدي، وبدا مسروراً باهتمامي له. وإذن هذا هو بالضبط ما كنت أبحث عنه. للحال عرضت على صاحب البيت شراءه، لكنّ هذا أجاب بأنه لا يملكه ولا يعرف شيئاً عنه - ولم يره من قبل.

واصلت مداعبتي له، ولمّا تهيأت للذهاب، اتخّذ وضعية تبين أنه يريد مرافقتي. فتركته يصحبني، وكنت بين الحين والآخر أتوقف وأربت على ظهره أو أمسح رأسه. لمّا وصل إلى البيت بدا أليفاً ولم يظهر عليه أي استغراب. وعلى الفور صار أثيراً لدى زوجتي.

أمّا أنا فسرعان ما وجدت المقت يتصاعد في أعماقي. وكان هذا عكس ما توقعته. ولم أستطع أن أفهم كيف تعلق القط بي ولا سبب هذا التعلق الواضح الذي أثار اشمئزازي وأزعجني. وأخذ الانزعاج والاشمئزاز يتزايدان شيئاً فشيئاً ويتحولان إلى كراهية مريرة، فأخذت أتجنب هذا الكائن؛ كان إحساس ما بالعار، وذكر فظاعتي السابقة يمسكان بي عن إلحاق الأذى الجسدي به. وامتنعت، طوال أسابيع، عن ضربه أو معاملته بعنف؛ لكن تدريجياً - وبتدرج متسارع - أخذت أنظر إليه بكره لا يوصف وأبتعد بصمت عن حضورة البغيض كما أبتعد عن لهاث مصاب بالطاعون.

ما أكد كرهي لهذا الحيوان هو اكتشافي، صبيحة اليوم التالي لوصوله أنه مثل بلوتو، قد فقد إحدى عينيه. غير أنّ هذا زاد من عطف زوجتي عليه، لأنها كما ذكرت، تملك قدراً عظيماً من المشاعر الإنسانية التي كانت ذات يوم ملامحي المميّزة، ومنبعاً لأكثر المسرات براءة ونقاء.

كان هيام القط بي يزداد بازدياد بغضبي له. فكان يتبع خطواتي بثبات يصعب إيضاحه للقارىء. فحيثما جلست، كان يجثم تحت مقعدي، أو يقفز إلى ركبتي ويغمرني بمداعباته المقززة. فإذا نهضت لأمشي اندفع بين قدمّي وأوشك أن يوقعني، أو غرز مخالبه الطويلة الحادة في ثيابي ليتسلق إلى صدري. ومع أنني كنت أتحرق في مناسبات كهذه لقتله بضربة واحدة، فقد كنت أمتنع عن ذلك بسبب من ذكري جريمتي السابقة إلى حدّ ما، لكن بصورة أخص - ولأعترف بذلك حالاً - بسبب الرعب من هذا الحيوان.

لم يكن هذا الرعب خوفاً من شرّ مادي مجسّد - مع ذلك أحار كيف أحدده بغير ذلك. يخجلني أن أعترف - أجل، حتى في زنزانة المجرمين هذه، يكاد يخجلني الاعتراف - بأن الرعب والهلع اللذين أوقعهما في نفسي هذا الحيوان ازدادا حدة بسبب من وهم لا يقبله العقل. كانت زوجتي قد لفتت إنتباهي، أكثر من مرة، إلى طبيعة البقعة البيضاء على صدر القط، والتي أشرت إليها سابقاً، تلك العلامة التي تشكل الفارق الوحيد بين هذا الحيوان الغريب وذاك الذي قتلته. ويذكر القارىء وصفي لهذه البقعة بأنها، على الرغم من إتساعها، لم تكن لها حدود واضحة؛ غير أنها، شيئاً فشيئاً - وبتدرج يكاد لا يلحظ، تدرج صارع عقلي لكي يدحضه ويعتبره وهماً - اكتسبت شكلاً محدداً بوضوح تام. صار لها الآن شكل أرتعد لذكر اسمه - هذا الشكل هو ما جعلني أشمئز وأرتعب، وأتمنى التخلص من الحيوان لو تجرأت - كان الآن صورة لشيء بغيض - شيء مروع - هو المشنقة! أوه - أي آلة شنيعة جهنمية للفظاعة والجريمة - للنزع والموت!

والآن لقد انحدرت إلى درك ينحط بي عن صفة الإنسانية! كيف ينزل بي حيوان بهيم - قتلت مثيله عن سابق تصميم - حيوان بهيم ينزل بي - أنا، الإنسان المخلوق على صورة الله العظيم - كل هذا الويل الذي لا يُحتمل! وا أسفاه! ما عدت أعرف رحمة الراحة لا في النهار ولا في الليل! ففي النهار لم يكن ذلك البهيم ليفارقني لحظة واحدة، وفي الليل كنت أهبّ من النوم مراراً يتملكني ذعر شديد لأجد لهاث ذلك الشيء فوق وجهي، وثقل جسمه الضخم - مثل كابوس متجسد لا أقوى على زحزحته - يجثم أبدياً فوق قلبي!

وهكذا انهارت بقايا الخير الواهية فيّ تحت وطأة هذا

العذاب . وصارت أفكار الشرّ خدين روحي - أشدّ الأفكار حلكة وشيطانية . ازدادت مزاجيتي السوداوية حتى تحوّلت إلى كراهية للأشياء كلها والجنس البشري بأسره . وأخذت نوبات غضبي المفاجئة المتكررة التي لم أعد أتحكّم بها واستسلمت لها كالأعمى ، أخذت تطال وا أسفاه زوجتي ، أعظم الصابرين على الآلام .

رافقتني ذات يوم لقضاء بعض الأعمال المنزلية في قبو المبنى القديم حيث أرغمتنا الفاقة على السكنى . تبعني القط على الدرج وكاد يرميني ، فاستشاط غضبي الجنوني ؛ رفعت فأساً متناسياً ما كان من خوفي الصبياني الذي أوقفني حتى الآن ، وسددت ضربة إلى الحيوان كانت ستقضي عليه لو أنها نزلت حيث تمنيت . غير أن يد زوجتي أوقفت هذه الضربة . كان هذا التدخل بمثابة منخاس دفع بغضبي إلى الهياج الشيطاني ؛ انتزعت يدي من قبضة زوجتي ودفنت الفأس في رأسها . فسقطت ميتة دون أن تصدر عنها نأمة .

لمّا ارتكبت هذه الجريمة البشعة ، جلست على الفور أفكر في التخلص من الجثة . عرفت أنني لا أستطيع إخراجها من البيت لا في الليل ولا في النهار دون أن أخاطر بتنبيه الجيران . مرت برأسي خطط عديدة . فكرت بأن أقطع الجثة إرباً ثم أتخلّص منها بالحرق . وفكرت في حفر قبر لها في أرض القبو . كما فكرت في إلقائها في بئر الحوش - وأن أحشرها في صندوق بضاعة وأستدعي حمّالاً لأخذها من البيت . وأخيراً اهتديت إلى أفضل خطة للتخلص منها . قررت أن أبنيها في جدار القبو . كما كان الرهبان في القرون الوسطى يبنون ضحاياهم في الجدران .

كان القبو مناسباً لمثل هذه الغاية . فقد كان بناء جدرانه مخلخلاً وقد تمّ توريق الجدران حديثاً بملاط خشن حالت الرطوبة دون تصلبه . وفوق ذلك كان في أحد الجدران تجويف بشكل المدخنة تمّ ردمه بحيث تستوي أجزاء الجدار . وتأكّد لي أن باستطاعتي انتزاع قطع الطوب من هذا التجويف وإدخال الجثة ، وبناء التجويف ليعود الجدار كما كان بحيث لا ترتاب العين في أي تغيير .

ولم تخطىء حساباتي . استعنت بمخل لانتزاع قطع الطوب ، وأوقفت الجثة بتأنٍ لصق الجدار الداخلي ودعمتها لتحتفظ بوضع الوقوف ، فيما كنت أدقق لأعيد كل شيء إلى ما كان عليه . كنت قد أحضرت الملاط والرمل والوبر ، فهيأت الخليط بمنتهى الدقة والعناية بحيث لا يميَّز من الملاط السابق ، وأعدت كل قطعة طوب إلى مكانها . عندما أكملت العمل أحسست بالرضا عن النتيجة . لم يكن يبدو على الجدار أدنى أثر يدل على أنه قد لمس . نظفت الأرض بمنتهى العناية ونظرت حولي منتصراً وقلت في نفسي : «لم يذهب جهدي سدى» .

كانت الخطوة الثانية هي البحث عن الحيوان الذي سبب لي هذه الفاجعة الرهيبة ، ذلك أنني قررت القضاء عليه . لو عثرت عليه في تلك اللحظة لما كان هنالك من شك في أمر مصيره ؛ لكن يبدو أن الحيوان الذكي قد أدرك عنف غضبي فاختفى متجنباً رؤيتي وأنا في ذلك المزاج . يستحيل عليّ أن أصف أو أن أتخيّل عمق الراحة والسكينة التي أتاحها لروحي غياب ذلك الحيوان . لم يعد للظهور تلك الليلة . وهكذا ، ولأول مرة منذ وصوله إلى البيت نمت بعمق وهدوء . أجل ، نمت على الرغم من وزر الجريمة الرابض فوق روحي .

مرَّ اليوم الثاني ثم الثالث ولم يظهر معذّبي . ومن جديد تنفست بحرية . لقد أصيب الوحش بالذعر فنجا بنفسه نهائياً ! ولن يكون عليّ أن أتحمّله بعد الآن ! كانت سعادتي بذلك عظيمة ! ولم يؤرق مضجعي وزر الجريمة السوداء إلاّ لماماً . جرت بعض التحقيقات وقدّمت أجوبة جاهزة . بل كانت هناك تحرّيات - غير أنّ شيئاً ما لم يكتشف . وأدركت مستقبل سعادتي في أمان .

وفي اليوم الرابع بعد وقوع الجريمة جاءت فرقة من الشرطة إلى البيت بشكل لم أتوقعه وبدأت تحريات واستجوابات دقيقة . لكن بما أنني كنت مطمئناً إلى خفاء الجثة لم أشعر بأي حرج . سألني ضباط الشرطة أن أرافقهم إلى القبو ، فلم ترتعد فيَّ عضلة واحدة . كان قلبي ينبض بهدوء كقلب بريء نائم . رحت أذرع القبو جيئة وذهاباً عاقداً ذراعي فوق صدري . إقتنع رجال الشرطة بنتائج بحثهم واستعدّوا للذهاب . كانت النشوة في قلبي أقوى من أن أكتمها . كنت أتحرَّق لقول كلمة واحدة ، لفرط ما أطربني الانتصار ، ولكني أزيد يقينهم ببراءتي .

«أيها السادة» ، قلت أخيراً ، لمّا كان الفريق يصعد الدرج ، «يسرّني أن أكون قد بدّدت شكوككم . أتمنى لكم تمام الصحة ومزيداً من اللباقة . بالمناسبة ، أيها السادة ، هذا - هذا بيت مكين البناء» (في رغبتي العارمة لقول شيء

سهل، لم أجد ما أتلفظ به) - «إنه بيت مبني بشكل ممتاز. هذه الجدران - هل أنتم ذاهبون أيها السادة ؟ - هذه الجدران متماسكة تماماً» ؛ وهنا، وبنوع من الزهو المتشنج، طرقتُ طرقاً قوياً على الجدار بعصا كانت بيدي، تماماً في الموضع الذي أخفيت فيه زوجة قلبي.

لكن ليحمني الله من مخالب إبليس الأبالسة! لم تكد اهتزازات ضربتي تغرق في الصمت حتى جاوبني صوت من داخل القبر! صرخة مكتومة متقطعة بدأت كبكاء طفل، لكن سرعان ما أخذت تتعاظم وتتضخم لتغدو صرخة واحدة هائلة مديدة شاذة غريبة وغير آدمية بالمرة - غدت عواء - عويلاً مجلجلاً يطلقه مزيج من الرعب والظفر، وكأنما تتصاعد من قيعان الجحيم تتعاون فيها حناجر الملعونين في سعير عذاباتهم والشياطين إذ يهلّلون للّعنات.

من الحماقة أن أحدّثكم عن الأفكار التي تلاطمت في رأسي. ترنّحت منهاراً وتهاويت مستنداً إلى الجدار المقابل. للحظة واحدة ظلَّ فريق الشرطة مسمّراً على الدرج بفعل الرعب والاستغراب. وفي اللحظة التالية كانت بضع عشرة ذراعاً شديدة تهدم الجدار. انهار قطعة واحدة. كانت الجثة قد تحللت إلى درجة كبيرة وغطاها الدم المتجمّد، وهي تنتصب واقفة أمام أعين المشاهدين وعلى رأسها يقف القط الأسود الكريه بفمه الأحمر المفتوح وعينه الوحيدة النارية، القط الذي دفعتني أفعاله إلى الجريمة ثم أسلمني صوته الكاشف إلى حبل المشنقة. كنت قد بنيت الجدار والقط داخل القبر(*).

(*) من مجموعة «القط الأسود» التي ترجمتها خالدة سعيد تصدر هذا الشهر عن دار الآداب.

إلى بيروت.. شفيعة الحواضر المنكوبة

سامي سويدان

أسميك حسرة
متوقعاً في هذا الوهج المريع
تستبيحينه في عمري وفي جسدي
كارثة تروح
بلطف غريزي لجارة قديمة
تغسل في الضحى
شبق حي يتصابى بترهب عصابي
تستلني أباريق من جمر وخمر ومصطفى؛
حسرة أنت اسمي
قصارى هذا العشق المتحفز
نزقاً نبوياً يتآكل غلمة مغتربة
تستحيل وشماً مستجيرا
يتهادى بين يدي آثمتين
دعة أموية تظفر بخارج الخوارج
يستغيث زبيباً وتفاحاً ورماناً وأنا

تعلنين امتلاء صبرك
فأتكىء على جبرية أغريقية متنازعة
ـ أعرف:
التاريخ حتى ننتهي
مجيء الساعة
فتون الغدر ولوب المجاعة ـ
تتمنعين إذ أرادوك
قرصان جن ينهمك
بعجائب جسر لا تحصى
عبثاً خلبياً
وفي وهن المعجزات تترى،
تشهرين تهنيد سفيانيتك
فالتجىء إلى فخذيك الرحيمتين
أتمنطقهما
كي عن صليبي لا أميل

* * *

أدبدب روسيا مخموراً أحيانا
وأحياناً أعشش
في قمقمك المرصود ناسكاً عريانا
منتصراً بك فيك
يا امرأة تهل ولا تطل
نهداً حجازياً حيياً
يتمرد لطاقة لا تستكين
يجفل منه تجار الخرائب والطلول والطمور
وتلوذ به ملاءات قلقي
تصل خفافيش الظهيرة بمجوس السحر
- يا فتنة تغفو على حجر -
إذ تشق حلمته صفاقة ظلامية رعناء
تعلن أفق المكابرة.

* * *

هلمي
- هل كان حوكك إلا استلهاماً سومريا
لا ينفك يغريني ويشقيني
استدراكاً لنأي ساموروي كثيب
ما زال يوصيني؟ -
إذ تنفض عنا دهاليز القبائل والعشائر والطوائف..
والطواف من وثن إلى حجر إلى ضجر،
أقف في عزك
أعالج حجابك بكبرياء الحروف النازفة
أكمن لبوح المسرة
وبكارة المتعة
وانفصام دهشة معذبة تغريني؛
هلمنا
إذ يقعي كبدي عند وركيك
في صحوة معمرة
تستجيب صرخة ماضية
تبري وجعاً وخطيئة
ووحي سجع لا يريب
يكاد ينهيني:
إذ الغرائز سجرت
وإذا الركائز فجرت
إذا الحرائر بركنت
وإذا السرائر فرعنت
إذا المراكيب ضمرت
وإذا المناكيب سمرت
إذا البوابات فرطست
وإذا الكانتونات فنطست
زمليني،
زمليني إذا ما المصابيح أترعت
وإذا ما التباريح صرعت
والنرابيج ولغت
والكرابيج سوغت
والعانة بلغت
والبانة مرغت
وهاتي غناء وعرقا وصبارا
هاتي من الأعاجم تنبكا
وهاتي جميزا ومستكى؛
وهيت لك
إذ يأتمر بي أزمة الحرب
فأنت حرثي
وأنت حرزي
وأنت حرسي
وهل أنا إلا نارك ونورك
أزرقك المسنون
يقطر مرافىء ومرافق وآفاق وأحرفا
يقطف خوذا وتمائم وعمائم
يسويها مرضاتك سطوراً وأرصفا..؟
هيت لنا
وما أدرانا ما الهيت!
لهاذمة البيت؟
رب قوت وكيت..
فلا تتذمري من نزواتي
إذ أحل رباطك المأفون
ولا تسترسلي في النسيان
إذ أبالغ في المغفرة
ولا تخرجيني
إذ لم يحن بعد حيني..

رماد أخضر في "أوراق الجسد العائد من الموت" (*)

بقلم محمد علي شمس الدين

■ **سحر المحسوس**

يظهر الشاعر الدكتور عبد العزيز المقالح، في مجموعته الشعرية الأخيرة «أوراق الجسد العائد من الموت» الصادر له عن دار الآداب، كامناً وعميقاً، مثل بئرٍ تغطي فوهتها أوراق الأشجار.

ثمة سحر خاص ينبعث من خلايا وعروق القصائد، من صمتها وأسرارها، ومن نشيجها الداخلي كالبكاء في معبد بلقيس المهجور... حتى كأن رماد مراثيه أخضر، أو مبتلّ... حتى كأن حجره التفّاحة...

في قصائد هذا الديوان، يظهر الشعر أبعد من القصائد، وتظهر القصيدة أبعد من بُنْيتها.. إن إيماءات إضافية تكمل القصائد حين تنتهي الكلمات، مثل سَحْبة الطيور بعد تلاشيها في الأفق، أو كامرأة يحضر جسدها بعد أن تتوارى عن النظر..

هكذا الشعر = الصدى: أو جوقة الغناء الخفيّ في الصدر وهي تستمر تقرع وتدندن، بعد إسدال الستار على كورس الغناء (القصيدة):

«السحابة بيضاء
والقمم المأربية مغسولة
أيّ كنزٍ من الضوء
هذا الذي ترتديهِ الظهيرة؟
للعشب طعم
وللأرض رائحة
والترابُ مرايا
اقتربْ أيها الأفقْ
إنّ يدي تشتهيك» (الحالة الثالثة من قصيدة حالات)

في هذا المقطع، تتصفّى القصيدة مما يرهقها، فنجد الشاعر يجيد اقتصاد الكلام، وضغط اللغة لكي تختزن حدودها القصوى من الحالات... فمن باب «اشتهاء اليد للأفق» (وهي الضربة العليا للقصيدة) سوف تتوافد أسراب حسّيات أخرى تخاطب الحواس الخمس:

- العين (السحائب بيضاء)
- اللمس (ترتدي السمٰوات والأرض الضوء)
- الذوق (طعم العشب)
- الأنف (رائحة الأرض)...

فالشاعر يستخدم في مقطعه المختصر مفاتيح الجسد، ويوقظ الحواس، ويغسلها كنباتات الأرض وبذورها، ثم يعرضها عارية (لا سوء فيها) على مرايا التراب... ولكنه يشعل هذه العناصر الأولى التي كاد ينساها الشعر اليوم في كثافات الذهنية والتجريد والرموز المركبة... يشعلها بضربة واحدة من «اشتهاء الأفق»...

«واشتهاء الأفق» هنا، لا تأتي أهميته من كونه «اشتهاءً نفسياً» أو «ذهنياً» أو «تجريدياً»... بل من حسيّته المثيرة، حيث «اليد» هي التي تشتهي (لا النفس).. وهذه الحسيّة اللمسية للاشتهاء، هي، بالذات، سبب السحر الخاص لهذا المقطع من الشعر، حيث أدوات الواقع (القصيدة)، في ما هي فيه من موضوعيتها، مثار سحر، بسبب لمسة بسيطة (هي لمسة الشاعر):

(*) «أوراق الجسد العائد من الموت» مجموعة شعرية للدكتور عبد العزيز المقالح، دار الآداب - بيروت - ط ١ - سنة ١٩٨٦.

«اقترب أيها الأفق
إن يدي تشتهيك» .

. . . . .
. . . .

مثل هذا السحر في المحسوس، قليلاً ما عرفناه في الشعر العربي المعاصر، الذي يعوم، في معظمه، على مياه تخييلية أو ذهنية . . .

ثمة استثناءات سابقة قليلة لدى بدر شاكر السياب، كما في قوله مثلاً:

«لقد أثمر الصمتُ الذي كان يثمرُ
بتينٍ من الذكرى . . .»

واستثناءات أخرى معتبرة لدى أمل دنقل، حيث يتحقّق في الشعر العربي المعاصر على أيدي السياب - دنقل - المقالح (مع تمايزاتهم الذاتية . . فالسياب والمقالح أكثر غنائية من أمل . . وأمل أكثر محسوسية Concre) . . ما بالامكان تسميته بدايات في أسْطرة الواقع، أو أسطوريته . . . وهو ما شهدنا له معادلاً عظيماً روائياً أو حكائياً لدى غابريل غارسيا ماركيز، الذي تتحلق في طين حكاياته المحلية المنقولة من شعبه، خلائق أسطورة وغرابة . . . . .

في هذا الحضن أو الموقد من طين الأشياء والكلمات، يندرج المقطع الذي يبدأ به عبد العزيز المقالح قصيدة «قراءة في أوراق الجسد العائد من الموت» :

«صنعاء . . الشارع الدائري
الزمن: ١٣ ديسمبر ١٩٨٢
الوقت: الثانية عشرة و ١٣ دقيقة ظهراً
الأشجار تتمايل . . السيارات تمسك ببعضها . . تتأوّه وترتطم بأعمدة النور، وتستنجد بفيء الشجر . .» .
ومقطع :
«الكآبة عالقة بالجدار
أم أن الجدار بأحجاره
عالق بالكآبة؟ . .» . (من قصيدة نقوش وتكوينات) .

■ المراثي . . أصوات الداخل

«في أوراق الجسد العائد من الموت» احتفال خاص بالمراثي، كما لو القبر وردة الحياة .

طقوس شتّى للموت تزدحم في ردهات الشاعر . . . أصوات داخل موحش تضطرب، وبكائيات تتوالى . . . حتى بالإمكان اعتبار الديوان، «كتاب المراثي» . . . كنبّيٍ بمزاميره، يقف عبد العزيز المقالح على أسوار مدينته ويرثيها بأجمل أصواته :

« من رأى شجراً ميتاً
وبيوتاً تموت؟
ومن أبصرت عينهُ جبلاً راكعاً
وتلالاً تداعب في بهجة الموت أطفالها؟
. . . . . .
إني رأيت النوافذ تبكي» .

وحين تموت «طفلة البنّ»، يمانية المقالح، الطفلة المدينة المشتهاة، يرتمي فوق قبرها والدم في عينيه . . ثم يمنع (الآخرين) من مسح الدم في العيون :

«لماذا . . .
يريدون مسح الدم من عينيَّ؟
أيها الأطباء
دعوا لي هذا الجرح
إنه الخيط الذي يربط بيني وبين القبر
ويصلني برائحة الأحباب»
(من قصيدة قراءة في أوراق الجسد . . .) .

. . . ثم فوق النقوش اليمانية، ينقش مراثيه، فيكتب المرثية المركّبة . المرثية في المرثية . . ولا يفعل مثل ذلك، سوى الشاعر الذي يؤاخي الموت، على قوله في «النقش الثاني من جدارية الشهيد محيي الدين العنسي» :

« كنت أخاً للموت
كان الموت لي أخاً . . .» .

وإذْ تتوغّل مراثيه وتتركّب، فإنها تشمل أمكنة وأزمنة وأصدقاء . . . . مرثية لعكا . . مرثية لمصر (المبغى - المبكى) . . مرثيّة لصنعاء . . مرثيّة لنقوش اليمن . . مرثية لصلاح عبد الصبور . . مرثيّة لأمل دنقل . . مرثية عصرية لمالك بن الريب . . ومراثٍ شتّى للأصدقاء . . لأولئك الذين ماتوا، وأولئك الذين مات عطفهم فيه .

يقول في «أغنية للرماد» . . (إلى الذي كان صديقي) :

«قبل أن ترفع الخنجر المتوغّل في الظهر
دعني أراك

فإن دمي حين عانقه
شمّ في نصله
مقطعاً منك
يستوي مخلب الذئب والكفّ
كف الصديق الذي حملته جفوني
وروّاه دمعي
وكنت له الريش والأفق
. . . . . .
لماذا استوى الزهر والشوك
. . . والشعر والجرح؟
كيف استوت ـ آهِ ـ تفاحتي والحجر؟» .

. . . .

وتتدافع المراثي حتى كأنّ «الموت هو النهر» (ص٦٢) والشعراء الموت (ص ٦٣) . . . أو كأنّه «لا شيء غير القبور الصديقة» كما يقول في قصيدة «القبر والخيول» المهداة إلى أمل دنقل .

هذا الشاعر الشاهد بربابته الحزينة ، على غروب الأمكنة والأزمنة والأصدقاء ، يظهر وكأنّه ، في آخر الحكاية ، يكتب مراثيه الشخصية . . كأنه مالك بن الريب المعاصر :

«كأنّي أوزّع آخر وقتي
أوزّع آخر صوتي
وأبحث عن لحظة للتذكّر
تحمل حزني على كتفها
قيل لي إن حبك لا ينتهي
إن صوت القصيدة لا ينتهي
إنني الآن أشهد موتين :
موتي
وموت القصيدة» .

(من قصيدة في رثاء بقعة الضوء) .

مراثٍ . . . مراثٍ . . ولكنّ عبد العزيز المقالح ، الدغلي اليماني المشبوك مثل نقشٍ سبئي ، الهادىء الغائر كخنجر ، القلق مثل مدينته ، يترك نوافذ عديدة للضوء يدخل إلى ناووس الموت . . بل هو يجعل الحياة ملتبسة في الموت .

يقول :
«هل ارسم نعشاً
أم عرشاً؟» .
ووجهه وجهان :
«وجه للصخر
ووجه للقنديل» .

■ أسئلة على الزمان اليماني
أسئلة على الزمان العربي . .

بين الذات والخارج واللغة ، تتنقّل حالات عبد العزيز المقالح في «أوراق الجسد العائد من الموت» ، وهو يشبك هذه الحالات في نسيج من النصوص يصعب فيها أحياناً الفصل بين جسد الشاعر وجسد الوطن وجسد الأصدقاء وجسد اللغة . . لذلك ، فالمراثي التي قالها ، كانت جوقة من مراثٍ للبلاد والأصدقاء والذات . . فمداخله إلى الأصدقاء البلاد ، ومداخله إلى البلاد الأصدقاء .

يقول في مرثية أمل دنقل (قصيدة القبر والخيول المهاجرة) :

« يترنّح ظل الخيول على وجه مصر العتيق»

فيؤاخي بين وجه مصر ووجه الشاعر . . كما يؤاخي ثانية بين هذين الوجهين ، في مرثيته لصلاح عبد الصبور :

«في الخلاء المواجه للقبر
تجلس سيدة هي مصر
تداعب أطفالها الشعراء
بغصنٍ من الكلمات الندية
. . . . . .
آهِ مالي أرى صوت مصر يغادرها؟»

والمراثي (التي هي قصائد الموت) كما قصائد الوطن ، كما الحالات ، تطرح في جوهرها أسئلةً على الزمان اليماني الخاص بالشاعر ، وأسئلة على الزمان العربي العام . . . وتأتي قصائد عبد العزيز المقالح ، بمثابة وشم على جسد طفلة البنّ (اليمن) التي يستدرجها الشاعر (في نصوصه) كي تعود من الموت :

«أيتها الطفلة اليمنيّة
(يا امرأة البنّ)
كيف يباغتك الأصفر ـ الموت
والأسود ـ الحزنُ
كيف تصيرين لحداً
وينكسر الظلّ في الحجر المأربي؟» .

هذه النقوش اليمانية التي يحفرها المقالح بالكلمات على جسد وطنه، تمنح نفسها لقراءات متعددة، حيث يتماهى الوجهان: وجه الشاعر ووجه الأرض... فنبصر الشقوق التي في وجه البلاد، تماماً في الشقوق التي في وجه الشاعر:

«يتشقق وجه القرى
يتشقق وجهي
وصوتي
والجبلُ الـ... كان ذاكرة البنّ والشمس
يتشقق وجه القصيدة».
(من قصيدة أوراق الجسد العائد من الموت).

وجه البلاد المشقق هذا هو وجه «الخراب».. تقرأه العناكب، وتبكيه الحجارة. تبكي فيه تاريخها «وزمان الوصال»...

والتماهي بين وجه الشاعر ووجه الوطن، يأخذ في قصائد عبد العزيز المقالح، أكثر من دورة وشكل.. فالقصائد عينها تغرق، حين تغرق الرمال:

«القصائد غرقى
وطافية فوق رمل الجنوب الشعارات
طافية في نهار الشمال المواسم
يا جبل «الشرق»
كيف حملناك للقبر؟»
(من قصيدة أوراق...)

وها وجه صنعاء مختفٍ أو محترق.. ولكنّ الحزن هو عليـ(ها) وعليـ(نا) أي عليـ(ـهِ) (الشاعر).

«كيف أقول لصنعاء
كيف أخاطب أحزانها
هل أقول اختفت طفلة البنّ
واحترقت؟
هل أقول انتهت؟
يا لحزني عليك
وحزني علينا...».

في الأسئلة ـ المراثي، المطروحة على الزمن اليماني (زمن الشاعر المحلي الخاص)، يتزاحم وجهان في نقوش القصائد.. وجه يغرق في أسن التاريخ، وسواد المقابر، حيث «تنمو المواجع في ورق القات» (من قصيدة حالات) ويرتدي «الوقت ثوب الرماد» (من الحالة الرابعة).. وحيث ينام على جفن الشاعر «التعب المأربي» (الحالة السابعة من حالات)..

ووجه آخر يطفو على رؤيا الشاعر وأحلامه، هو (الوجه الضد) أو الوجه الثاني (النبوي) المجلبب بالضوء والمغسول بدموع الإنسان وأشواقه الجديدة.

يسميه المقالح «الميلاد الثاني».. ويرصد حركته وتردده ومراوحته بين الشروق والغروب في قصيدة «في انتظار هدية الميلاد الثاني لطفلة البنّ»:

«تشرق
تغرب
تضحك
تبكي
تأكل
تؤكل
تنهض
تسقط
تشتاق نخيل القلب ولا تشتاق
تختار ولا تختار».

هذه الحركة القلقة لولادة «اليمن الجديد» أو «طفلة البن»، يبرع المقالح في تصويرها كما يبرع في تصوير قشرة البلاد العتيقة الميتة.. (اليمن القديم)، وفي رثاء هذه القشرة.. وذلك في نقشٍ من أجمل نقوشه:

«يكتبني دمي
يوقفني في النقش شاهداً للعصر
شاهداً للنهر جفّ في بدء الربيع ماؤه
للشمس ترفض الظلام
انطفأت قبل مجيء الفجر
للملايين الجياع الخارجين كعظامٍ من سواد القبر
للأرض التي أرادتني كتاباً وردةً صدًى
وشبحاً على مناطق الفراغ».

لكنه لا يحمل فقط، فوق ظهره، هذه الحجارة الثقيلة للزمن اليمني القديم (حجارة القبر)، وإنما يجمع في عينيه أيضاً، رشاقة الوطن الجديد، وكواكبه وأشجاره:

«صورة الأرض التي أحببت
والمبادىء التي اعتنقت
والحرف الذي عشقت

والكواكب التي أقمت في عيون الماء
في دم الأشجار
في مساحات الزمان
في شرايين المكان
في جدار السجن
في ظهيرة الميدان»

(النقش الثالث).

وهو دائماً، إذ يصعد من قاع الظلمة والتعب (المأربي)، إنما يفعل ذلك، بحركة قيامة حقيقية، لا بد فيها من إراقة دم الولادة (دم الشاعر):

«أخرج من قبري
ممتطياً صوت الجسد المذبوح
مقطوعاً من شجر الخوف
أفتّش عن وجهي
عن دربٍ مغسولٍ بالدم»

(من قصيدة الوصيّة).

هذا الزمن اليماني الخاص الذي يطرح عليه عبد العزيز المقالح أسئلته، وينقش على جسده نقوشه، والذي هو زمانان: واحد يرثيه ويطمره، وآخر يستنهضه ويصنعه (في الوقت الذي يلتئم فيه القول الشعري بالفعل)... هذا الزمن اليماني الخاص ليس معزولاً (في خطاب الشاعر) عن نهر الزمان العربي العام.. بل هو ذرّة من ذراته الكثيرة، بحيث يمكننا القول إن شعر المقالح (اليماني) يتحرّك في مجرّة عربيّة.

هذه المجرّة العربية، تتشكّل عناصرها من أمكنةٍ وأسماء وحالات، في الحاضر والتراث العربيين، كما تتشكّل من «لغة شعر» عربية معاصرة، يندرج المقالح في تيارها، فهو فرع من دوحة لغة الروّاد الشعرية، من حيث أسلوبية التعبير، وايماءات الصورة والجملة الشعرية، واسترفاد التراث العربي وتأويله، فضلاً عن المحافظة على النواة النغمية الجوهرية للقصيدة العربية الحرّة المعاصرة (التفعيلة)، كما عرفت على أيدي السيّاب والبياتي والحيدري والخال وعبد الصبور وحجازي وسواهم...

والأسئلة التي يطرحها المقالح على المجرّة العربية، تبدأ بأوجه البلاد، وتختتم بأوجه الناس.. وجه عكا.. وجه مصر.. وجه بغداد.. ثم بعد ذلك، تنهض بين يدي الشاعر، أسئلة في التراث، ومعنى الحضارة والأصل، والمواجهة، ومعنى البقاء والزوال....

«موحش وجه عكا...
وعكا مهيأة للحصاد...
...
يا بديعَ المحيّا
أنت يا وجه عكا المحاصر بين النقا
والنقود..
لماذا يخاصمني فيك وجهي
...
أنت وجه عكا المحاصر بين النقا
والنَقَبْ
أنت عار العرب
أنت مجد العرب»

(من قصيدة نقوش وتكوينات في جدار الليل الفلسطيني).

والأسئلة هنا، لا بد لها أن تلامس السياسة، وأن تنعجن بلغتها، فتحمل حدّةً ومباشرةً جارحة:

«يافا تقاتل يافا
وماء الخليل يقاتل ماء الخليل
لماذا يموت النخيل
وتبقى الرمال؟
لماذا تموت الظلال
وتبقى الصخور القبور؟

لماذا يبعثرنا ورق الاحتمال
ويخلعنا شجر المستحيل؟»

والزمان اليماني (الذي هو زمانان في شعر المقالح)، هو أيضاً مزدوج في طقوسه العربية، حيث كل أرضٍ لديه أرضان: واحدة ترسب في قاع القبر والترهّل، وأخرى تنهض من رمادها.

فمصر، في قصيدة «إيقاع الظهيرة» «موالنا الجميل» و «براءة التكوين في خريطة الشجن»... وهي الوجه الآخر (أو الثاني) لمصر المبغى:

«مصر المبغى والمبكى
مصر الجسر إلى عرب النفط

إنا أنزلناه
وفرعون الحافظ».

وهي الوجه الآخر لمصر المرارات، حيث «يغتال الشتاء لون البحر» و «الصيف بلا لبن»:

«وأنتِ يا مصر بلا ظل ولا شمسٍ
ووجهك الشاحب في انتظار إيزيس
وفي انتظار ذويزن...»

وحيث «نحيب الأهرام يطاردني
ونحيب النهر يطارد كل الأشجار».

وهو يدخل إلى مصر، من بواباتها في الأرض والأصدقاء.. يراها في الأهرام كما يراها في صلاح عبد الصبور وأمل دنقل:

«في الخلاء المواجه للقبر
تجلس سيدة هي مصر
تداعب أطفالها الشعراء بغصن من الكلمات النديّة».
(من مرثية لصلاح عبد الصبور: حدث في النصف الثاني من الليل).

وحين يؤاخي عبد العزيز المقالح بين الوطن والصديق، يؤاخي بين الصديق ونفسه.. فتتوحد أقانيم قصيدته الثلاثة: الوطن ـ الصديق ـ الذات..

هكذا يرى إلى عكا وبغداد في مرثية عصرية لمالك بن الريب.. وإلى مصر في مراثيه لصلاح عبد الصبور وأمل دنقل... وهكذا ينظر إلى اليمن، في نقوشه الجميلة على جسدها الحيّ.

إنه في مراثيه وأسئلته، في شكاواه واستنفاراته، يريد شيئاً واحداً هو أن ينهض بالأرض والإنسان، من: «مروحة النار إلى مروحة العشب».

القيامة لأعراس النعوش

عبد الكريم الناعم

طفلة تنام في خرابْ
تُرَتِّبُ اليخضور فوق غصنِها النخليِّ ورقةً،
فزهرةً،
فيُورِقُ اليباب.

* * *

خُضرةٌ،
الحلسم أخضرُ،
والمـاءُ أخضـرُ
والأفقُ مِئزرُ.

* * *

مَن يُتلفُ الغابات في آفاقِ روحِها؟
مَن غيَّرَ الأشياءَ عن هيآتِها؟
حُلمٌ أم الجنادبُ الصفرُ استردَّت صوتَها،
والوقتُ مجهرُ؟

* * *

خُضرةٌ تمتدّ في سواد شجرة مهجورة،
مِن هنا دبّابةٌ.
ومِن هناك بَزّةٌ مُموَّهَهْ
مِن هنا قنديلُ بحرٍ يَشهَدُ ائتلاقَهُ،
ومن هناك أمة مشبَّهَهْ

* * *

تنامُ في خرابْ
تعيدُ بين طلقةٍ وكِسْرَةٍ ترتيبَ حُلمِها
فيغرقُ التّابوتُ في (العبابْ)

* * *

مِن أينَ كلُّ هذا القهْـرْ ؟
يَدخلُ الحديدُ في البيوتِ ساخناً
فتهربُ البيوتْ.

مِن أين كلُّ هذا الفقْرْ؟
شاشةٌ، عمولةٌ، سفائنُ،
قبائلُ تموتُ
أشرعةٌ. واشنطنُ البيضاءُ (!!)،
خرقةٌ. كفنْ
مِن أينَ يأتي حزنُ هذا النهر؟
مَن عبأ الهواءَ بالبَعوضِ، والنابلم، والعَفنْ؟
غيمةٌ من الردى،
وسِكّةٌ من المُدى،
وثُلّةٌ من المَتوَّجينَ ثم يُذبحُ الوَطنْ

* * *

المومسُ الشقراءُ تكتري ورقَتها،
بالنفطِ والدولار ترتدي هيئتَها،
وهيْ عبر ليلتين تستَرِدّ من (حاكِمها)
الشرقيِّ فادحَ الثمَنْ

مِن عُروةِ اكترائها النوعيّ حتىّ عُروةِ
(الجاكيت)، حتى الشاهقِ المنصوب
في تلوُّثِ المُدُنْ
/ يا زهرةً خضراءَ أطْلَقَت دماءَها
فأزهَرَ الحزَنْ
تَفتّحي على سياج هذا القلبِ مُهرةً،
وأطلقي الصهيلْ
إني أخاف أن يستوحشَ النخيلُ/ .

* * *

- يا صَبيّةً ينامُ في طقوسِها الخرابْ
أين الدّواري، والعبورُ، واحتفاءُ الماءِ،
والعرائشُ الأوتارُ، والندى،
أكلّهم غيّابْ؟!

- أما ترى؟!
في كل شاشةٍ، في كل عَرضٍ لا يُباحُ
يملأُ السوقَ رُغاءُ عُرْيِهم؟!
حيٌّ البعيرَ، والأميرَ، والمُتوّجَ الخطيرَ،
حَيِّهِم في كل أرضٍ تُستباحُ
من مكاتبِ (التحرير) حتى ورقةِ التأجيرِ،
حيِّ شبكةً، دريئةً،
تُحاكُ بالتنازلاتْ

حَيِّهم،
لِشَهقةٍ تفتّتتْ ما بينَ خوفِها ورأس خنجرٍ،
في شارعٍ مطفأةٌ أشجارُهُ،
وصحوُهُ سُبَاتْ

حيِّهِمْ،
لقُبلَةٍ فرّتْ بعيداً قبلما المذابحُ (البيضاءُ)!!
تلقي بيضَها،
ويُغْولُ الجُناةْ
حيِّهِمْ،
والطائراتُ تقتفيكَ مِن بدايةِ العَرجونِ
حتى سِدرةِ الواحاتْ

حيِّهم،

أين انتقلتَ في ديارِ (هِمْ)، . .
دريئةً تَظَلّ .
دريئةً، لا دولةً،
وهامشاً في حَلّ . .

* * *

خيمةً كانت، عمودُها: بارودةً،
وأن في المستقبل الكبير فُسحةً،
وأنّ كلَّ قطرةٍ تُراقُ: نجمةً تَشعُّ
في الظلامْ

خيمةً كانتْ فصيَّروها غيمةً ميناؤها:
الرياحُ،
وانتظارُها: الكلامْ
يا مَنْ يَبيع خيمةً بغيمةٍ،
من ذا يُعيد للغَمامِ بهجَةَ الغَمامْ؟!

* * *

يا أُمّتا إنا وقد نزفَتْ منا الدماءُ،
تُقِلُّنا السفُنُ . .

نفطاً، وحَلاًّ، كانَ في دمنا
هذا الخفاءُ، وذلكَ العلَنُ
تعدو الديارُ بنا مُطارَدَةً
فيفرُّ من حكّامِهِ الوطنُ

ما بينَ (مكّةَ) والهُدى زمنُ
والسَّعفِ، يُمْسِكُ قوسَهُ، زمَنُ
تمضي الموانيءُ وهي شاخصةٌ
فَبُياضُها، في عُريِهِ، كفَنُ
يا أُمّتا . . .
وبينَ عَتمةِ البترول وارتفاع نسبةِ البياضِ
في الدولار ترتقي الأسواقُ،
ترتقي
والسيدُ الأميرُ: حَسْوَةً، أنشوطةً معقودةً
بما بقي

* * *

حُلُمٌ حجَرْ
دَبابةٌ مرَّتْ على جسَدٍ تشبَّثَ بالطفولةِ
والتراب، وبالشَجَرْ
حُلُمٌ تَفتَّقَ وَردُهُ عن نحلةٍ تَنقضُّ، تخترقُ
الحديدَ، فيَجزعُ الفولاذُ، تُمْسِكُهُ الدروبُ
فَما يكادُ. . . ،
الريحُ تسفَعُ تِلكمُ الأرتال،
يشتعِلُ الهواءُ،
فكلُّ مئذنة شَرَرْ
حُلُمٌ قَمَرْ
يتفقَدُ الأشجارَ، والاشبالَ، والبَزّاتِ داخلةً
خَضيرَ بنانِها، في ليلةٍ تتفتَّحُ الأجسادُ فيها
قبلَ زَلزلةِ الوتَرْ
حُلُمٌ شَجَرْ
يا مَن رآ (ها). .
بينَ طلقةٍ وصاعقٍ تَبتكرُ الجنوبَ، ترتدي
أوراق تبغه،
مهرةٌ خضراءُ تعدو بين أول الجنوبِ وافتتاحياتِ
الجرائدِ، الصباحُ يستفيقُ بينَ شارتينِ واغتسالِ
البحرِ بالأطفالِ ذاهِبينَ باتجاهِ القمحِ،

مَرأةٌ عائدةٌ من أول الأنباءِ تنتقي زغرودةً
تُناسبُ الشهيدَ، . .
أرضَعَتْهُ يومَ أرضَعَتْهُ النسغَ والحليبَ، . .
حوَّطَتْهُ باسم ربِّهِ العليِّ، بالخرنوبِ والصنوبرِ
البريِّ، . .
أطلَقَتْهُ بينَ صَحوةِ الصخورِ والشُهُوقِ فهو لا يحبّ
الموتَ إلاّ شاهقاً،
وأولَ الألوان أحمرا
يختارُ نعشَهُ، انفجارَهُ، فتسجد الذرى

* * *

حُلُمٌ قدَرْ. . .

* * *

الطفلةُ التي نامَت على خرابْ
يستيقظُ النخيلُ في قامتها،
تقومُ من سُباتِها خريطةً، سنبلةً، قنبلةً،
تابوتَ تي - إنْ - تي،
تقوُم من نخاعِها مشحونَةً بالرعد، والبروقِ،
والسحابْ
فَتبدأ البلادُ رحلةَ الإيابْ.

حمص

قصة قصيرة

"فاتورة عربية"

وفيق يوسف

أوه.. لقد طالت أظافر قدمي كثيراً.. كيف لم أنتبه لها؟.. لا أدري من أين جاءتني عادة مداعبتها هكذا!!.. هذه العادة سيئة.. يجب الاعتراف بذلك.. أباغت نفسي في أحيان كثيرة ـ وأنا أسوح بين الأفكار والصفحات ـ فأجدني أبحث فيها متلذذاً بيدي اليسرى.. يجب الخلاص من هذه العادة المتخلفة.. أجل.. وإلا ماذا إذن؟

حسنٌ إنني أنهيت هذا الكتاب.. جميل يا أخي جميل.. إنجاز حقيقي.. منذ زمن بعيد لم أقرأ كتاباً بهذه الدسامة وهذه المتعة..

يجب قص هذه الأظافر. أجل وإلا ماذا إذن؟ لا يجوز الكسل في مثل هذه الأمور...

إيه حسناً، بقي هذا الظفر اللعين.. ينتابني شعور الراحة الآن.. يجب إنجاز كل شيء في حينه، تماماً هكذا..

ماذا أفعل الآن؟ لست على موعد مع صديق.. والساعة الآن الرابعة.. أجد ذهني متعباً ولا أرغب في القراءة أكثر.. ثم هذه ليلة رأس السنة.. ينبغي أن أسهر في مكان ما.. إيه.. زمن والله.. زمن غريب وصلت إليه، لا أدري أين أذهب؟!.. أنا الذي كنت من أبرز شبّان هذه المدينة.. أنتهي إلى هذه الحال؟!

ولكن يا أخي كتاب ممتاز.. أشعر أنني تقدّمت كثيراً بقراءته.. تفرّغت له طوال أربعة أيام حتى أنجزته.. كم أنا سعيد بذلك.. ينبغي أن أتمشى الآن قليلاً في هذه الغرفة.. ست ساعات من الاستلقاء في السرير للقراءة، أمر مرهق.. كثيراً ما سخر مني أخي الأصغر بسبب عادة السرير هذه.. ولكنني لم أكن أسمح له بتجاوز حدوده.. أجل.. وإلا ماذا إذاً؟! يجب أن تكون التخوم واضحة.. أخ أصغر يعني أخاً أصغر!.. تماماً.. يجب أن يتعلم كيف يُحترم أخوه الأكبر منه.. وإلاّ ماذا؟! تعلّم الثرثرة من الشبّان الثرثارين أمثاله ويريد أن يكون نداً لي.. لم يبق إلا هذا!

يجب أن أنهض الآن.. سأتمطّى قليلاً.. أووه... جسدي متخدّر.. ولكن الاستلقاء في السرير مريح.. لا أستطيع الجلوس على الطاولة للقراءة.. لا أرتاح كما أرتاح على السرير.. هنا يمكن للمرء أن يُمدِّدَ يديه ورجليه ويرخي جسده ويتمطّى و.. و.. باختصار يصنع ما يشاء.. ولكن لأغيّر وضعيتي قليلاً.. هكذا، حسناً.. لست مستعداً لتغيير هذه العادة مهما اتُّهمت بالكسل، صحيح أنني أقضي كامل وقتي في القراءة، مستلقياً هكذا، بعد عودتي من العمل، ولكنني أرتاح في ذلك يا أخي.. إذن ماذا تريدون؟! حقاً غريب!!

إيه.. كتاب ممتاز.. أجل يا أخي.. إنها أزمة هذا العقل.. الذي حملناه على رؤوسنا على ما كان عليه منذ ألف عام.. واخترقنا به عصر الآلة والكومبيوتر.. لاهثين مكدودين.. نتخبّط يمنةً ويسرةً.. ونفغر أفواهنا من الدهشة.. لماذا لم يفهمنا العصر ونفهمه؟.. لقد آن الأوان للخلاص من كل هذه الأوهام التي ملأت عقولنا طوال عقود.. أوهام، أوهام، أوهام.. يشرّحها هذا الكاتب بمهارة طبيب جرّاح يعرف مكمن الدّاء.. ينبغي أن ألخص الكتاب غداً.. يجب أن أنهض.. سأزور الياس.. أجل، لم أره منذ عدّة أيام، وهو صديق يُعتدّ به.. يا أخي جميل أن يكون للمرء صديق مثله. سنتناقش مطوّلاً في فحوى الكتاب.. لم يقرأه بعد.. ولكنني سأستعرضه له.. أعتقد

أنه سيوافقني على آرائي . . فهو نادراً ما يعارضني . . ممتاز هذا الصديق . . يمكنني الاسترسال معه بأفكاري حتى النهاية . .

فلأنهض دونما كسل لأرتدي ثيابي . . أجل هكذا، سأغلق آلة التسجيل . . كلا. كلا . . فلأتركها تصدح ريثما أكمل ارتداء ثيابي، فيروز مريحة يا أخي، مريحة جداً . . تكمل الجوّ الذي أعيشه وتعطيه انسجامه . . لدي خمسة وخمسون شريطاً لها، كم أنا فخور بذلك . . لا أستمع لغيرها، هي والموسيقى الهادئة والكلاسّيك، أجل، يجب أن تعتاد آذاننا على تذوّق هذه الموسيقى الراقية . . بدلاً من طبلة فلان وزمّور فلانة وما لا أدري أيضاً!! زمن غريب . . كل شيء فيه يتراجع . . ولكنني حافظت على نفسي وموقعي جيداً . . إذا لم يمكنك التقدّم فلا أقلّ من الوقوف . . التراجع شيء مرعب . .

هه! ها هي السترة العنابيّة . . كم هي أنيقة . . يا أخي الأناقة شيء جميل . . جميل ومطلوب . . يجب أن يعتني المرء بمظهره الخارجي، وإلا ماذا إذن؟ أخي يلومني على ذلك، لم يبق إلا هذا! لا يفهم من الحياة شيئاً ويريد أن يتفلسف عليّ؟! اصطدمنا عدة مرّات، وكنت أعنّفه بشدّة . . قال لا يمكنه أن يفهم كيف يقف إنسان جادّ مثلي ساعتين أمام المرآة! هه؟! يظنني أجلس مع شبانٍ مراهقين أمثاله؟؟

لماذا تحضرني هذه الذكريات الآن؟ . . لقد مرّ عليها خمس سنوات كاملة، خمس سنوات! وذلك الغبيّ يقاطعني ولا يكلمني، ويأتي إلى دمشق فلا يزورني . . الغبي! لا يعلم كم أحبّه، ولكنني لا أستطيع السكوت على الخطأ، أكثرت من تعنيفه . . يجب الاعتراف بذلك . . كم كان لطيفاً وودوداً دون سائر إخوتي . . وكم كانت علاقتنا حميميّة في البداية، ثم خرّبها بسلوكه السمج . . سجلت له في يوم واحد خمسة أخطاء، أذكر منها تلك الحلويات المغشوشة التي جلبها إلى البيت من محلٍ سيّء، وعندما وبّخته ودللته على مكان آخر، لم يستمع إليّ بل ألقى بالحلويّات إلى القمامة؟! يا لطيش الصبيان!!

ولكنني أنا الذي أوصلته إلى هذه الحالة، لم يعد يقيم وزناً لفارق السن بيننا، بعد أن اتّخذته مستودع أفكاري وأسراري . . أجلس معه طوال السهرة. بعد عودتي إلى المنزل، لأحدّثه عمن قابلت وبمن التقيت وبماذا تحدّثت . . ثم تلك الليلة اللعينة . . لم يكن عليّ أن أبكي أمامه . . أنا في الجامعة وهو طفل في الإعدادية . . وحيدان في ذلك البيت الخرب في داريّا . . والليلة شتويّة ماطرة . . يومها بكيت من العوز . . بكيت بحرقة . . على مائدة الغداء وأمامي صحن البرغل . . اللعنة . . كان يغصّ من القهر . . اللعنة . . لا أريد تذكّر ذلك الحادث . .

كان كثير الحساسيّة . . يقرأ الشعر ويتذوّقه . . وأعتقد أنه كان يطمح إلى أن يكون شاعراً . . ولكنني وقفت له بالمرصاد . . لا يجوز التساهل في مثل هذه الأمور . . أنت متفوّق في دراستك فلتدرس الطب إذن؟! تحب أو لا تحب هذه مسألة أخرى! . أجل، المسألة الأساسية هي إنقاذ وضع العائلة المتردّي! . انتشالها من وهدة الفقر . . وفيما بعد، فيما بعد، يمكنك التفرّغ لما تريد . .

يا أخي، الطبّ مهنة مربحة . . في هذه الأيام لا يعيش سوى المهندس والطبيب . . هذا ما يقوله العوام، وهو صحيح . . حتى المهندس قُذف به إلى «المكبّ» - جميلة هذه «المكب»! في مكانها تماماً - بقي الطبيب إذن . . صديقي عمر التنوخي . . كان معي في الدراسة . . وكنت متفوقاً عليه - كنت متفوّقاً على الجميع ! - درس الطب وغدا مليونيراً الآن! دخله اليومي يتجاوز الألفي ليرة!! ممتاز يا أخي! . . يستطيع المرء أن يتخلّص من ضغط الحياة . . أما أنا فقد أضعت طاقاتي في مغامرة فاشلة سلفاً . . كان يمكنني أن أصبح مثله، بل وأحسن منه، ولكنني سلكت درباً آخر . . وهذه حالتي الآن. الوحدة والخيبات المتلاحقة . .

مالي وللذكريات الآن . . فلأذهب إلى الياس إذاً . . وإذا كان قد جهّز نفسه لسهرة ما فلا بأس . . يمكن أن نسهر معاً . . سهرة متواضعة . . . على الأقل لمراجعة حسابات عام مضى . . . إيه . . حسابات؟! سخف!! أية حسابات تلك التي يتعين عليّ مراجعتها؟ حسابات الخيبة والانهدام الذاتي؟! تأتي ليلة رأس السنة ولا أحد يدعوني لسهرة ما؟ مهزلة! . . إلى أين تسير بي حياتي يا ترى؟!

عسى ألا أكون قد غفلت عن إغلاق النور . . سآخذ سيارة أجرة ضماناً للسرعة . . من غير المعقول هذا الازدحام في الباصات . . لا يمكنني احتمال ذلك . . تصارع هذا وتدافع ذاك ولا ينتهي المشوار إلا وروحك في الحضيض، وقد بصقت عدة مرّات . . على كل شيء، على الآخرين وعلى التخلّف وعلى نفسك أيضاً!!

العمي؟! مشوار من شارع برزة إلى الطبالة بخمس عشرة ليرة؟! كيف يعيش المرء في هذا البلد؟ ربع راتبي يذهب تقريباً للتنقلات. . وربعه الثاني قسطاً للمنزل. . والباقي للأكل والكتب ومشاغل الحياة. . ويريدون منك أن تفكّر جيداً؟!. السفلة. . كيف؟ كيف أفكرّ جيداً وأنا في هذه الحالة من اللهاث وراء الحياة؟. . أركض وأركض ولا ألحق بها! علبة الطون بعشر ليرات؟! وشوربة الماجي بتسع؟. . . وأنا لا زلت أكابر، لا أدري إلى متىٰ؟! ولكن لا يمكنني التنازل. . وإلا خسرْت كل شيء. . سأبقىٰ أقرأ وأملأ روحي بالثقافة والفكر وليفعل الآخرون ما يريدون. . أجل هكذا!. . لكلٍ جحيمه ولكلٍ فردوسه. .

هذه الأزقّة اللعينة ألا تنتهي!. الذي أطلق اسم «الطبّالة» على هذا الحي لم يكن مخطئاً. . رغم ما يبدو على الناس هنا من أنهم يرقصون دون طبلٍ أو زمر. . هيء هيء. . ولكن عسي أجدك يا الياس، وإلا كان المشوار عبثاً. .

كم تبدو البلاهة على وجوه الناس!. . كلّها وجوه كتيمة بليدة. . خالية من أيّ تعبير. . ترىٰ هل يفكّرون بشيء؟ هل يدور شيء في هذه العقول الملغاة؟ لا أعتقد. . . رؤوس منخفضة وظهور محنيّة وعيون مطفأة. . إيه. . كم تغيّرت يا دمشق!. . مثل هؤلاء الناس ماذا بقي لهم؟. . لماذا يعيشون؟. . ولكن؟. . أنا أيضاً ماذا بقي لي، ولماذا أعيش؟. . . ما أسخف أن يقضي المرء حياته هكذا؟ دون أن تملأه قضيّة ما. . فكرة ما. . غاية ما؟! آه. . يا لنمط الحياة الآسيوي! أخيراً، هوذا البيت، فلأقرع الجرس. . أوه، لا أحد، سخف. . أين ذهب هذا الوغد؟ فلأعد إذن. . كان بودّي رؤية الياس هذا. . كنا سنسهر معاً. . وكنت سأحدّثه عن الكتاب. . ولكن لا بأس، فلأجرّب زيارة سليم في الشارع المجاور. . أيضاً سليم شاب جيّد. . جميل يا أخي أن يكون للمرء أكثر من صديق في حيٍ واحد!. .

لكنني كنت أفضل رؤية الياس. . يا أخي الياس شاب متميز، عقلاني أولاً. . ومثقف ثانياً. . ونبيل ثالثاً. . وهذه صفات ما أندر وجودها في زمننا هذا!. ذهنه متوقّد دوماً. . لقد ربيتّه على يدي. . أجل، وماذا في ذلك؟ أن تربّي امرءاً لكي تتخذ منه صديقاً فيما بعد؟ يوم يعزّ الأصدقاء. . صحيح أنّه لم يخطر في بالي ـ عندما بدأت في توجيهه بعد الثانوية ـ إنه سيكون صديقي الأثير فيما بعد. . ولكن هكذا الحياة!! ـ كما يقول الفرنسيّون. . هكذا سارت بي وإلى هنا قادتني. .

كنت أرعاه كي لا يضيع. . وجدت فيه خامة جيّدة وطاقة متفجّرة. . فوجهت هذه الطاقة في مسارها الصحيح كي لا تتبدّد كالبخار. . أنجز الهندسة في موعدها وها قد غدا الآن مهندساً ناجحاً. . علاقتي به ممتازة رغم فارق السنوات العشر بيننا. . ورغم كل الحساسيات التي دخلت علاقتنا. . خصوصاً في الفترة الأخيرة. . لا أعرف ماذا يدور في عقول هؤلاء الأطفال؟! غدا مهندساً وخطب تلك الفتاة الفلسطينية الجميلة ـ كم هي جميلة بشعرها الأسود الفاحم وعينيها الخضراوين كعيني زبيدة ثروت ـ فأصبح يريد هو الآخر أن يعاملني الند للند؟! نسي فجأة أفضالي عليه؟ نسي أنني أستاذه؟! نسي كم تعبت عليه بالأحاديث والنقاشات وانتقاء الكتب المناسبة لكل مرحلة من تطوّره الذهني؟ نسي أنني نقلته من مرحلة كان يبكي فيها كطفل صغير إذا أزعجه خبرٌ ما. . إلى مرحلة غدا فيها شاباً مكتمل النضج؟!. . غريب يا أخي!! ماذا يحصل لهؤلاء الناس؟!. . حتىٰ الأصدقاء الحميمون دخلت الحساسيات بينهم؟!. . نسي أنني فضّلته على أخي الأصغر؟. أجل. . وماذا يعني هذا؟. . وماذا إذا كان أخي؟. . إلى متىٰ سيبقىٰ نظام القرابة يكبلنا بقيوده؟. أخ أو غير أخ ليس مهماً. . المهم هو البنية النفسية والعقلية. . . وأنا وجدت إلياس متقدّماً على أخي. . فآثرته عليه. . أبقيته إلى جانبي وتركت ذاك الطائش يذهب إلى اللاذقيّة. . . ليدبّر نفسه بنفسه. . هل سأحمله على أكتافي؟ يريد أن يكون نزقاً معي فليكن. . سيرىٰ العاقبة بنفسه. . يجب أن يعلم أفضالي عليه. . أجل. . وإلا ماذا إذن؟!

ترىٰ كيف يعيش ذلك النزق؟. . أين يسكن وماذا يأكل ومن يعاشر؟. . ولكن لا بأس. . ستعجنه الحياة وتعلّمه كيف يكون متماسكاً أكثر. . وجاداً أكثر. . فالجانب الوجداني في شخصيّته يطغىٰ على الجوانب الأخرىٰ. . وهذا ما يزعجني فيه. . العمى؟! يبكي من قصيدة ويريد أن يثرثر في السياسة؟! أقول له افهم يا بني آدم. . انظر إلى نفسك وراجعها جيداً وتعلّم ماذا تريد من الحياة؟! حدّد هدفك جيّداً وسر إليه، لا يقتنع!! يجيبني: أنت لا تصلح لدور الواعظ؟!. . العرص؟ قال أنا لا أصلح لدور الواعظ!! أنا!! الحق عليّ والله. . من الخطأ إعطاء الحريّة لمن لا يستأهلها. .

. . . أعترف أنني المخطىء الأول. . يجب الاعتراف بذلك، أجل. . أنا الذي جعلته يتفتّح على جوانب الحياة

باكراً غدا أنضج من سنّه بكثير. . وصعب عليه التأقلم مع أترابه ومحيطه. . ومن هنا بدأت أزمته. . الوعي المبكرّ هنا مشكلة حقيقيّة. . ربّما كان في دول أخرى امتيازاً، وسبقاً للزمن في سبيل النجاح. . ولكنه هنا ليس أكثر من تفريغ للعقد والأزمات، التي تتأصل في النفس مع الزمن، . . أحياناً أشعر بالذنب والمسؤولية تجاهه. ألم أكن أنا الذي وجّهته في هذا الطريق؟ ألم يكن من الأفضل تركه لتفوّقه الدراسي والاجتماعي؟ . . ولكن ما ذنبي أنا؟ إذا كانت المرحلة هكذا!! حتىٰ أنا لم أكن واعياً لهذا المسار. . . وقد وقعت في المطب قبله. . ماذا إذا كان كل شيء يسير إلى الخلف؟ . . إذا كان مقياس النجاح والسعادة هو امتلاك البيت والسيارة والفيديو والتلفزيون؟ . . إذا كان المواطن العربي يبحث عن ثقب يدفن رأسه فيه! . . كما قال أحدهم يوماً . .

أتذكر الآن جيداً. . احتفلنا معاً بهذا اليوم في العام ٩٧٦، لأول مرة. . كنت في الجامعة يومها. . كم يبدو الفرق شاسعاً بين ذلك اليوم وهذا اليوم. . كأن بينهما قروناً؟! . .

عشر سنوات. . عشر سنوات فقط. . ولكن كم من الانهدامات. . كم من التراجعات؟ . . لم يبق مني سوىٰ الحطام كم كنت متألقاً. . وكم كانت الثقة تملأني والطموح يتواثب بين ضلوعي. . كنت أقود الأحاديث وحلقات النقاش في الجامعة وفي الحي. . وألتقي بمثقفي العاصمة وأنا في السنة الأولى حقوق! . . .

ترىٰ أين بدأ العطب؟ هل يكمن في خروجنا من داريّا، ذلك الحيّ الشعبي البسيط بأزقته الموحلة وبيوته الطينيّة. . إلى هذه الأبنية المسبقة الصنع؟ . . أم هو في بنيتنا الريفية الأصلية. . التي لم تترك فينا سوىٰ الهشاشة والخواء والخوف من المدينة ورعب المدنية؟ . . رغم أنني قطعت جذوري تلك. . ولم أعد لقريتي الساحلية منذ سنوات لم أعد أذكرها. . ولكن يبدو أنها بقيت فينا. . تقودنا في مسارات الحياة المتشعبّة. . مخلّفة فينا الرعب والخوف وإحساس الوحدة الذي لا يرتوي. .

هذا هو بيت سليم أخيراً. . النافذة مظلمة. . أيضاً ليس هنا! الرذل ليس هنا! أين هم الأصدقاء؟ فلأعد إذن، ولأسلك من جديد هذه الأزقة. .

لست آسفاً لعدم مشاهدتي سليم هذا. . لم أكن سأسرّ به كثيراً. . شاب خجول وطيّب كثيراً. . طيبته هذه ستسحقه. . يا أخي ماذا تفعل في دمشق؟! . . كم أمقت طيبة هؤلاء السذّج. . الطيبة سخف. . سخف مطلق، أفضّل الياس، هذا شاب يعرف كيف يصنع قدره. .

أوه. . كلا كلا، يجب أن أحافظ على هدوئي، لا ينبغي عليّ تحريك سبابتي هكذا في وسط الشارع، . . سيظنّ الناس أنني مخبول. . هذا ما كان ينقصني. . أسير في الشوارع مكلّماً نفسي!! يجب أن أبقى محافظاً على هدوئي واتزاني. .

من أين يأتي هذا القلق كلّه وهذا الاضطراب؟ . . دماغي لا يهدأ لحظة واحدة!. هذا المحرّك اللعين لا يتوقّف عن دورانه أبداً. . سأصاب بالصرع على هذه الحال. . فلأعد إلى منزلي الآن. . لا أريد البحث من جديد عن صديق. . لم يعد ثمّة أصدقاء. .

يا للتفاهة. . ليلة رأس السنة أقضيها وحيداً! أستقبل العام الجديد وحيداً! دون صديق؟! دون امرأة! دون أخ. . إلى هنا وصلت؟! أنا الذي كنت أدخل مئات البيوت في دمشق هذه. . ابتعدت عن الحياة إلى هذه الدرجة؟! . .

في الخامسة والثلاثين ولا شيء في الأفق. . لم يبق شيء. . حطام وغبار. . غدونا حطام الحياة. . وعلى ما يبدو فإن مشوار العمر سيكون خائباً، وهذا ما يرعبني. . كيف أواجه تلك الأم الحزينة؟ . . لا أستطيع رؤيتها. . ولا أتحمل عذابها. . وهي تظنني قاسياً معها وتبكي قهراً لذلك. . يا الله لو تفهمني. . إنها لا تفهمني. . لا أحد يفهمني. . قابعة في ضيعتها البعيدة تنتظر. . وتحلم، وتبني الأوهام. . تغسل حلمها بدموعها السخيّة كي يبدو ألقاً وساطعاً. . تظن ابنها وزيراً في المدينة. . ولا تعلم حجم الخيبات، والجراح، وعتق السنين. . بف. . قذارة. . تفو. اللعنة، ليلة رأس السنة ولا صديق، أيّها العالم القذر. . أيتها الحياة المرذولة. . كلا. . كلا. . يجب ألا أحرّك يديّ هكذا، فلأعد إلى منزلي. . سأسهر لوحدي. . وماذا في الأمر؟ . . الكثيرون يسهرون لوحدهم هذه الليلة، في كل مدن هذا العالم الشاحب. . ينبغي أن أكون قوياً. . أمام نفسي علىٰ الأقل. . فلأنزل إلى السوق لأبتاع طعاماً ونبيذاً. . سآخذ سيارة للمرّة الرابعة هذا النهار. . ولكن لا بأس. لماذا تعاكسني الحياة إلى هذه الدرجة يا ترىٰ؟ . هل حجم أخطائي كبير هكذا؟ . . لا أعتقد. . مشكلتي أنني أكبر

من زمني.. وهذه هي آفتي الحقيقيّة.. أنا الذي كنت أدير حلقات النقاش في الثانوية.. أنا الذي حجمت المسؤول الحزبي في قريتي.. وكنت في العشرين وكان في الأربعين... أنا الذي جلست في حوار مع عميد كليّة الآداب حول قضيّة التراث لمدة ست ساعات.. في سنتي الجامعية الأولى... أنا الذي كنت استقطب الشبّان من حولي كزعيم حقيقي... أنا...

سخف، مالي ولهذه الأفكار، إذا استمرّت الحساسية بيني وبين مديري في التلفزيون، فمن الممكن أن أتعرّض للنقل من عملي.. لا يمكن وجود رأسين في غرفة واحدة.. الجميع يتزلفون له ويتوددون له عداي... لا يمكنني ذلك.. هو الذي يجب أن يتودّد لي لا أنا.. إنّني أفوقه وعياً وثقافة وتجربة.. أتحدّاه أن يذكر لي عناوين خمسة كتب في الأسواق؟! خمسة فقط!!.. وليكن موضعها ما يشاء؟!.. يا للشيطان كم هو ضحل!.. ومع ذلك يسلّمونه القسم الثقافي بأكمله.. وأكون أنا مرؤوسه.. فقط لأنه مسنود الظهر، يتكيء على أقربائه، في الجيش.. ويريد أن يذلّني السافل.. لم يبق إلا هذا.. الوغد عندما يكون الخبر مهماً لا يجد من يحرّره سواي.. ومع ذلك يتآمر عليّ..

إنني الآن موظف صغير.. فشل أن يكون كبيراً.. يوم بدأت العمل قلت لا بأس، التلفزيون ليس بمستوى طموحي ولكن لا بأس.. الإنسان لا يصعد دفعة واحدة.. بل خطوة خطوة.. درجة درجة.. ومسيرة ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.. أليس هذا ما تعلّمناه من أيام ثرثراتنا تلك؟.. ثم إن الرئيس اللبناني أمين الجميّل بدأ حياته مذيعاً تلفزيونياً!.. إذن، فلنجرّب..

ها هي الصالحية، فلأنزل هنا.. زحام.. زحام هائل.. إلى أين يذهب كل هؤلاء الناس.. وما الذي يبغونه؟ أية معانٍ تحملها هذه العيون الباهتة والمحقونة والدامعة؟.. يتفرّجون على بعضهم وعلى الواجهات المضاءة ببلاهة ثم يواصلون سيرهم على امتداد الشارع. ترىٰ بماذا يفكّرون خلال مشوارهم الطويل؟.. هل يكتفون فقط بالفرجة على واجهات المحال والسينما والنوادي؟! هل يتأمّلون جمال عاصمتهم؟.. ما الذي يحقّقه هؤلاء الأغبياء من نزهتهم اليومية هذه؟! هل يقذفون بهمومهم على العابرين مثلهم وعلى واجهات المحالّ؟.. هل يبحثون عن عزاء ما يجدونه في الآخرين الذين يماثلونهم في نمط العيش؟ أم أنّه لا بد من الخروج من المنزل في هذه الساعة، ولو كان للاّهدف.. وللامكان؟.. لا أعرف.. لم أعد أستطيع التفكير جيّداً كالسابق..

ضجيج.. ضجيج.. أليس لهذا الضجيج من نهاية؟.. لا أحب الزحام.. أفضل الشوارع الخالية والأجواء الهادئة.. ولكن ما لي كئيب هكذا؟!.. أستطيع أن أتصوّر سحنتي الآن، كآبة وتجهّم قاتلين.. يجب أن أبدو بشوشاً بعض الشيء.. كيلا تفضحني سحنتي الكامدة إذا قابلت وجهاً أعرفه.. هه!.. لم أكمل جملتي بعد، ها هو نبيل قادم!. يا الله!. منذ سنوات.. سنوات طويلة لم أره.. ها هو يقترب.. أوه.. جميل يا أخي أن يلتقي الإنسان بأصدقائه القدامى.. لم يلمحني بعد.. سنأخذ بعضنا عناقاً وقبلاً.. فللقدامىٰ دوماً نكهتهم العبقة.. لقد لمحني.. لا بد أن.. العمىٰ.. يا للسخف!.. إنه يدير وجهه!.. العرص؟! لمحني فأدار وجهه بسرعة؟! تظاهر بأنه لم يرني! يتأمّل واجهة النوفوتيه؟ حسناً.. لن أسلّم عليه.. لَهْ يا وغد! يا سافل!! ماذا حصل للناس؟!.. انظروا الوغد.. لقد نظر نظرة خاطفة، ولكنّها كانت كافية لرؤيتي.. أدار وجهه بسرعة.. نسي كل شيء.. نسي داريّا وأيامها وأحاديثها.. نسي ذكريات الدراسة المشتركة.. نسي كيف وقف مشدوهاً أمامي. يوم قدّمت له، طوال ساعات أربع.. تحليلاً شاملاً للثورة الإيرانية.. وكيف تنبّأت له بالمصير الذي آلت إليه قبل أن يحدث هذا! أجل قبل أن يحدث! وإلا ماذا إذن؟! يا للساقط الآخر.. نبيل هذا.. مثال.. مثال آخر على الصداقة المستحيلة.. مزبلة حقيقية، آه.. آه.. أين بدأ العطب؟.. ولكن الجواب سهل.. لماذا أهرب منه؟ أعماقي تنطق به ولساني يتعثر في لفظه.. إنها رجاء، أجل، هي وليس من سواها، سبب شقائي وبلائي كله.. بداية هزيمتي الحقيقيّة كان خروج رجاء مني.. فضلّت عليّ ضابطاً في الجيش؟! سقطت هي الأخرىٰ!! العمىٰ!! لماذا يسقط الناس بهذه السهولة؟!.. لماذا لا تجد المرأة التي تذهب معك إلى نهاية الشوط؟!

آه يا رجاء.. أين دفؤك الآن يحميني من صقيع كانون وصقيع دمشق؟.. أين صدرك الحاني ألقي عليه تعب العمر وخيباته؟ لم أكن أعلم.. لم أكن أعلم أنه نجاحي معك هو إمتحاني الأكبر.. هو مفتاح نجاحي في الحياة.. تعلّمت الدرس متأخراً.. أفلتُّها من يدي.. أجل.. أنا الذي أفلُّها.. بقيتْ متمسكة بي حتىٰ اللحظة الأخيرة.. وأنا الذي

تقاعست، كنت متألّقاً يومها.. شاب جامعي طموح ومثقّف. لهُ أصدقاء يُعتدُّ بهم وله حضوره في أي مجلس.. كان فيّ كل مواصفات الشاب الناجح.. وكان من السهل عليّ الحصول على إمرأة تناسبني.. ولكن يومها. لم تكن المرأة تعني لي الكثير. كنت أخوض معاركي الجدّية التي لا مكان فيها للعواطف والتنهدات.. كنت أرىٰ في هذه الوجدانيات ميوعة فارغة!

كم كانت وفيّة؟ كم كانت دافئة! تحنو عليّ كأم.. ولا تقاطعني عندما أتحدّث إلا لتؤكد على كلامي.. أجل. كنت أجلس ساعات طويلة أحدّثها وأناقش معها الأخبار، ومواضيع الكتب وأمورنا العامة، وأفتح أمام ذهنها المغلق آفاقاً رحبة.. كانت تستمع إليّ بإعجاب واندهاش من مقدرتي الفائقة على الاسترسال في الحديث، ومتابعة أفكاري إلى نهاياتها المنطقيّة..

يا لتلك الأيام.. ذهبت الآن، كما ذهب كل ما هو مضيء فينا، ولكن... رجاء، خسارتي الكبرىٰ، كانت بالنسبة لي «تحويشة العمر» كما يقول الشوام..

عاملتُها بقسوة، يجب الاعتراف بذلك، أجل، كنت أدقّق في سلوكها وأحاسيسها على كل غلطة ـ كما فعلتُ مع أخي ـ وبالنتيجة خسرتها كما خسرتُ أخي.. لماذا أنا صارمٌ لهذه الدرجة؟!.. لماذا لا أستطيع تفهّم سلوك الناس العاديين؟! لماذا أطالب الجميع بالتميّز، بالدّقة، بالجدّية؟! لماذا لا أدعهم يعيشون حياتهم كما يريدون؟!.. لقد واجهني الياس مرّة بذلك عندما كنت ألفت انتباهه إلى خطأ ضحكته المجلجلة على الشرفة آخر الليل.. انتفض في وجهي زاعقاً، للمرة الأولى:

ـ يا أخي حلّ عنيّ، هل تريد من الناس جميعاً أن يكونوا أنبياء مثلك؟ عظماء مثلك؟ زعماء مثلك؟! كانت المرّة الأولىٰ التي يخاطبني فيها بهذه اللهجة، افترقنا يومها مختلفين، واستمرّ خلافنا فترة، ثم عاد إليّ.. ولكنهُ كان محقاً.. أنا نبيّ فعلاً.. نبيّ في زمن لا يحتاج أنبياء.. بل يغتال الأنبياء... هذا الوصف جميل، نبي،.. ولكن.. اللعنة. إنه تعزية ليس إلا، إن أنا إلاّ نبيٌ فاشل. نبيٌ منبوذ، لأقلها بصراحة..

إلى أين تمضي بي هذه الدرب؟.. أين تسيرين بي أيتها الحياة؟ كل زملائي شقّوا دربهم أحسن مني، هؤلاء الذين كانت صداقتهم لي طموحاً بالنسبة إليهم فيما مضىٰ!.. وماذا أنا الآن؟.. موظف عادي من الدرجة الخامسة، زملائي يقفزون من أمامي ومن خلفي صاعدين السلّم الوظيفي وأنا قابعٌ أجترّ آلامي..

الصحافة!!.. كانت توقي مذ كنت طفلاً في الصفوف الابتدائية الأولى.. أجل.. عندما راجعت ـ منذ عامين ـ تلك الأوراق والدفاتر المدرسية القديمة التي تحتفظ لي بها أمي ـ ويا لتلك الأم ـ أحسست بقلبي ينشطر نصفين وطفرت الدموع من عيني وأنا أرىٰ بين تلك الأوراق الصفراء، رسالة صغيرة إلى خالي صالح، ذيّلتها باسمي وتحت الاسم كتبت بلون أحمر فاقع: الصحفي الثائر!.

بف!.. مسارات غريبة تقودنا في دياجير الحياة!.. من ذا الذي يستطيع التنبؤ بهذه المسارات؟ الصحفي الثائر!! هه! أين أصبح الآن؟.. لم أكن أعلم أن هذه المهنة الساطعة يمكن أن تحمل، كغيرها، كل الابتذال في زمن ما!.. كنت طفلاً يفتح عينيه بدهشة على الحياة.. كنت أقرأ مقالات محمد حسنين هيكل في الأهرام وأنتشي بها.. ويملأني الطموح.. قلت لماذا لا أكون مثله؟! لم أقدّر أننا لسنا في مصر وأن ذلك الزمان بخير..

أخيراً، هوذا مخزن الإخاء، فلأدخُله، هؤلاء الشوام يتفنّنون بالأسماء، كما يتفنّنون بكل شيء يمتُّ إلى المال بصلة، التاجر منهم يتودّد إليك والابتسامة تملأ شفتيه ويقسم لك بأغلظ الأيمان أنّه يبيعك بالخسارة! يمكنه أن يسرق منك مليون ليرة وتخرج راضياً من مخزنه، متوهّماً أنّك أنت الذي سرقته!!.

حسناً!.. وها هو بائع اليانصيب على مدخل المخزن.. جميل أنني التقيته.. لأشترِ بطاقة إذاً.. كلا كلا.. فلأشتر اثنتين.. لعل وعسىٰ!.. من يدري؟ جائزة هذا العام مليونا ليرة. تنفع!.. ولكن! ماذا المليونا ليرة في دمشق؟! إذا كان ثمن الشقّة في المزّة يفوق المليونين! وفي أبو رمّانة يفوق الخمسة! وفي الفيلات أضعاف؟! إن هذه المليوني ليرة ستكون عاجزة عن تأمين شقّة محترمة في حيّ محترم في دمشق؟!

القنّ الذي أسكنه يسمونّه بيتاً!! غرفة كبيرة وثانية أصغر، والثانية لا تتسّع لأكثر من سرير وطاولة وخزانة صغيرة!.. آه لو كان لديّ ثلاث غرفٍ وصالة!.. لكان إذاً بيتاً مريحاً ومعقولاً!.. ثلاث غرف وصالة.. أجل، الصالة لاستقبال

الأصدقاء.. طقم من الأثاث الأنيق، والبسيط.. فلا داعي للترف الزائد.. وغرفة للنوم، ولتكن عاديّة أيضاً!.. وأخرىٰ للطعام، ويمكن استعمالها لأستقبال الضيوف الوافدين.. أما الثالثة فهي غرفتي الخاصّة، سأنظّمها جيداً، يجب أن يكون لها طابع جاد ورصين.. وإلا ماذا إذن؟! سأفصّل لها مكتبة فخمة من طراز رفيع، أجل، وهل هذا كثير؟! ما معنىٰ مثقّف إذا لم يكن لديه مكتبة تؤوي كتبه؟.. ثم يجب أن يكون لديّ مكتب أنيق وواسع.. أستخدمه للبحث والكتابة.. عندها سأبدأ حياتي الحقيقيّة.. وعندها سيعرف هذا البلد اللعين من أنا!!..

سأضع في الغرفة آلة تسجيل.. وأقرأ على أنغام الموسيقى.. جوّ مريحٌ يا أخي.. وسألغي عادة القراءة في السرير.. فعلاً إنّها تشتّت الذهن وتبلّد الجسم... وتبعاً لذلك ستلغىٰ تلقائياً، عادة مداعبة أظافري وتنظيفها باستمرار فهي مرتبطة بالسرّير!!.

ثم هناك التلفزيون الملوّن.. سأضعه في غرفة الاستقبال.. يمكن أحياناً تحقيق بعض المتعة فيه.. والفيديو.. آه أجل!.. لماذا لا يكون لديّ فيديو؟!.. بيت عصري وجميل يجب أن يحوي فيديو. أجل! الفيديو إنجاز حضاري رائع، سأشتري فيديو. وسأجلب أفلاماً جادّة.. سأضعه في غرفة النوم.. وسأ...

العمىٰ، كان يدهسني هذا السافل؟!.. أيها الوغد! يا رذل! لم يبق إلا هذا!؟.. يتزاحمون علىٰ هذا الجسد الضعيف!.. يجب أن أنتبه جيداً.. لأصعد إلى الرصيف.. إيه، لو كانت لديّ سيارة.. كم كانت ستحلّ لي من مشاكل.. السيارة ممتازة.. تؤمنّ للمرء حريّة التنقلّ والسفر! وتختصر كثيراً من الوقت.. يجب أن أفكر في الأمر!.

بف! مالي مسترسل هكذا في أحلام يقظتي؟.. أحلام، أحلام.. طوال حياتي كنت حالماً.. وربّما كان هذا سبب مآزقي.. أحلم بالبيت والسيارة وأنا موظّف عادي راتبي لا يتجاوز الثلاثة آلاف ليرة!.. آكل في مطاعم البلد وأتنقل بالتاكسي وأشتري الكتب والمجلاّت و... وبنتيجته ينتهي الشهر وليس في الجيب إلا بقايا من بقاياه..

أخيراً، هوذا الأوتستراد.. مقفر مثل أعماقي.. الشوارع الخالية تريحني رغم إحساس الوحدة الموحش.. بل ربما بسبب هذا الإحساس اللذيذ.. ترى! ماذا تحمل لي يا شارع الخراب؟!.. ما الذي تخبّئه بين طيّاتك الدفينة لمغترب وحيد مثلي.. حكم عليّ بمعاشرتك طويلاً؟!.. وبالتصبّح بمرأىٰ وجهك الكريم كل يوم.. وقد تكون أوّل من أصادفه في الصباح وآخر من أودّعه في المساء!.. ترىٰ! لو بقيت في داريّا ألم يكن أفضل لي؟ حارة شعبية أجل.. أُناسها سذّج ومتخلفون أجل.. ولكنّها كانت تعطيني إحساساً بالأمان!.. فعلاً!! كنت أحس بالأمان في تلك الحارة.. رغم الوحدة والغربة.. ترىٰ ألم يبدأ الشرخ عندما خرجنا من عالمنا ذاك.. عالمنا البسيط والشفّاف؟. يا للسخرية.. شعرت يومها بسعادةٍ غامرة!.. ظننت نفسي قادماً لأبني أمجاداً هنا!.. حيث الشهرة والأضواء وأصول التعامل اليومي بين الناس.. قلت لنفسي «طبقة متوسطة أجل!.. ولكنها أفضل من أناس ذلك الحيّ الشعبي المتخلّف؟!..» ظننت نفسي خرجت من وهدة التخلف إلى العالم الأرحب!.. مهزلة!.. أحلام معطوبة!.. التخلّف هنا وهناك..

ثم.. هذا الشارع الطويل الطويل.. أما آن له أن ينتهي بي؟.. العمارات العالية تتسابق على جانبيه متسلسلة مثل حبّات السبحة الفوسفورية.. والمصابيح المتوهّجة الصفراء تنيره ناشرة بقعها الكابية على الرصيف.. ثم هذا البرد.. آخ من هذا البرد.. برد من الخارج وبرد من الداخل.. وجسدي النحيل يتفتّت بينهما.. وحياتي تضيع.. كنبع تذهب مياهه إلى أرض صخرية جرداء.. ولم يبق شيء.

أخيراً، هوذا القن البائس، مساء الخير أيها القبر!.. مساء الخير أيها الصمت.. أيها الغبار.. أليس ثمة صرصور ألقي عليه تحيّة المساء أيضاً.. وأتركه يعبث في الممرّات كي يسلّيني؟.. إيه.. فلأجهزّ الطاولة إذن.. طاولة بسيطة ومتواضعة.. فقط نبيذ ولحم بقر وتفاح وبرتقال.. مع زيتون وجبنة ولبنة..

سأستلقي على السرير.. يمكنني وضع الطاولة إلى جانب السرير والاسترخاء هكذا.. أجل.. مريح هذا السرير.. وهذه الغرفة تشعرني بأمان أكثر من الخارج.. أُغلق الباب وأترك فيروز تصدح.. وأجلس ساعات طويلة للقراءة..

يجب أن أقلّل من الخروج إذا لم يكن ثمّة داعٍ لذلك.. والذي يودّ رؤيتي ليشرّفني هنا.. أجل.. الأوغاد.. لا أحد في بيته! الأنذال! لا أحد في بيته!.. لا أحد يسأل

عليك! . . كل منهم غافل عنك وراء متعه الصغيرة التافهة! . . أقضي سهرة رأس السنّة وحيداً في غرفتي القميئة هذه . . وهم يسهرون مع فتياتهم ونسائهم . . وجيوبهم متخمة بالمال! . . وفيما بعد، بعد أن ينتهي كل شيء . . يأتون ليستعيروا كتبي ويجلسون أمامي بخشوع طالبين تحليلاً للخلافات الفلسطينية والأزمة اللبنانية والحرب العراقية الإيرانية وأزمة العقل العربي . . وما لا أدري أيضاً! . .

سفلة! . . لا أصدقاء في هذا الزمان . . لا صديق ولا صادق . . كنت أردّد يوماً أن الصادق طفل مات أو طفل لم يولد بعد . . أجل، كثيراً ما قلت ذلك، وها هي الأيام تؤكد صحة استنتاجي، وإلا ماذا إذن؟! . . . أنا لا أريد أصدقاء . . وماذا في ذلك؟ سأصادق كتبي . . إنها لا تخونني . . سأقرأها جميعاً . . سأقرأ عشر ساعات في اليوم . . سأقرأها كلها . . كلها، سأنحتها نحتاً، وسألخّص الجيد منها . . . ولكنّ ذهني بدأ يتعب من القراءات الجادّة . . أطنان من الكتب حشوتها في دماغي الضئيل . . فلأحاول الاهتمام بالأدب . . لقد أهملته زمناً طويلاً . . كنت أظن قراءة الأدب مضيعة للوقت وترفاً لا مسوّغ له!! . . ليتني أوليتها حقّها منذ البداية . . إذن لكنت تعلّمت الكثير ممّا لم تعلّمني إياه الحياة . . سأقرأ دوستويفسكي . . لدي أعماله الكاملة . . كلّفتني أكثر من ألف ليرة . . وأعتقد أنها مناسبة لحالتي الراهنة . . لرجل وحيد ودون أصدقاء ومتخم بالخيبات . . ستستغرق منيّ وقتاً، تسعة عشر مجلداً، هم م م م . . .، تحتاج لشهر ونصف . . أجل . . شهر ونصف يكفي لإنجاز هذا المشروع .

إيه . . الميماس صنف جيّد . . أفضل نبيذ سوري . . اعتدتُ عليه منذ زمن ولا أحبّ تغييره . . كأس كل مساء . . مريح يا أخي . . يجب أن يبقىٰ هذا الصنف متوفراً دوماً في المنزل . . أشعر بخدرٍ لذيذ يسربل جسمي، النبيذ حقاً ملك الشتاء . . ولكن هذا الإحساس العميق بالبرد الداخلي يعكّر صفو إحساسي بالجمال . . آه يا رجاء، أنت مقتلي . . لماذا يتأخرّ الإنسان هكذا في تعلّم دروس الحياة؟ . . يوم كانت معي لم أكن راضياً . . كنت أظن اختياري سيّئاً! . . والآن . . آه لو تعودين . . . كانت تجثو أمامي وتقول باكية : كن لي يا حبيبي . . لي أنا فقط! . . ولم أكن أبالي بها، وهأنذا أحصد ما زرعته . . لم يبق منها سوىٰ هذه الصورة المعلّقة على رفّ المكتبة . . يا لعينيك الخضراوين . . أوه، هذا الإشعاع الفظيع فيهما يشرح قلبي، يذكّرني بمروج الربيع في قريتي البعيدة . . حيث تكرج العصافير وتصدح الأغاني . . كم كانت دافئة وطرية . . تطوّقني وتغمرني بالقبل كأنني طفلها . . تناغيني وتدلّلني وتحضر لي القهوة والطعام حتى سريري . . بينما أكون منهمكاً في قراءاتي . . كم كانت حريصة على إرضائي؟ في كل حركة . . في كل لفتة . . كانت تحسب لي حساباً . . تعلم ما سيكون ردّ فعلي على هذا التصرّف أو ذاك، كم تحمّلت في سبيلي . . كم مرّة أتتني والبقع الزرقاء تملأ جسدها . . كم كان أبوها يعذّبها كي تهجرني، كان يريد تزويجها من ضابط أمن مثله . . فكيف يقبل بشاب متسكّع ـ هكذا سمّاني الوغد ـ لا مستقبل له ويثرثر في أحاديث لا تجلب سوىٰ الخراب!! .

عارض بشدّة . . وصلت به حدّ ملاحقتنا في شوارع دمشق، بسيّارته البيجو . . وفي ذلك اليوم، كاذ يدعسنا أمام كلّية الحقوق، عند المنعطف، جنّ جنونه عندما رآنا معاً، ولو لم تنتبه هي في اللحظة المناسبة لدعسنا، مؤكد كان سيفعل . . لكننا احتمينا بالكشك القائم على زاوية الرصيف فنجونا، ولم يكتف بذلك؟ بل نزل من السيارة و . . . صفعني .

العرص! . كانت تلك أكبر طعنة لكرامتي في حياتي كلّها، تفو! صفعني الكلب، وهدّدني بالقتل إذا رآني معها ثانية . . ثم لفّ شعرها على يده وجرّها إلى سيّارته . . أحسست بنفسي كالصرصار ـ أمام الطلبة الذين اجتمعوا حولي ليعرفوا ما حدث . . .

بعدها انفصلنا . . قلت لها : حسناً، إنني لا أتشرّف إطلاقاً بمصاهرة هذا الوغد، أبيك . قالت ـ تصوّروا : ـ خذني إلى بيت أهلك في بانياس وسأبقىٰ عندهم حتى تنهي دراستك، ولن يعرف والدي بمكاني . لم أوافق؟! كابرت! كنت أعامل أهلي بترفّع وأمارس عليهم نرجسيتي القذرة، وكانوا يصدقون هذا الترفّع ويخافون تلك النرجسيّة، ويتعاملون معي بخوف ورهبة . . أنا الذي فرضت هذه الطريقة في التعامل . ولكن . . ألم أكن محقاً؟ ألا يجب أن يكون البيت منضبطاً؟ هل سأقبل بالميوعة في بيتي، أنا الذي أحاربها في المجتمع؟ كلا! أنا الأخ الأكبر ويجب أن تكون لي رهبتي في المنزل، أجل، لا يمكن . . لا يمكن تقبّل الميوعة التي يسمّونها بساطة وأريحيّة وما لا أدري أيضاً! . . وإلا انفرط شمل الأسرة . لذا يجب ضبطها بيد من حديد، وإلا ماذا إذن؟

ثم إنها هي لم تكن قويّة كما يجب، كنت أبحث عن الفتاة القوية التي لا تحمّلني أعباء الحياة والمعيشة.. ولا يمكنني القبول بفتاة تقليدية.. وهي كانت تقليدية في الكثير من سلوكها اليومي.. وصلت إلى منتصف الطريق ووقفت ـ دوماً يصلن إلى منتصف الطريق وتقفين! ـ رأت المسار الطويل فارتعدت بهلع.. كانت تخاف من أبيها ومن المجتمع رغم تظاهرها بالعكس.. وأنا لا أريد فتاة خائفة.. وديعة وبسيطة وأنا أريدها قوية وشامخلة مثلي.. وإلا فلا؟! جميل والله!!

إيه.. كأس أخرى من هذا النبيذ الجارح.. إلى متى سأبقى أكابر وأنا متهدّم هكذا؟.. آه لو تعودين الآن يا رجاء.. وأنت أيّها الأخ العاق والنزق.. أحبك.. أحبّك يا عرص!. ولكنّك لا تدري.. ولن تدري.. أيها الغبي!. لن تسمعها منّي ولو على فراش الموت.. لا يمكنني أن أبوح لك بذلك.. تظن أنني جلفٌ معك.. ولكن هكذا طبيعتي يا أبله! لا يمكن أن تراني باسماً ضاحكاً في وجهك. لا يمكن!.. بيننا كل سني العذاب وكل المشوار الخائب.. كل سنوات الجمر تحرق قلبي فيلتهب لرؤيتك. لهذا أعاملك بصرامة وجدية.. لو تباسطت معك لطفرت الدموع من عيني فوراً، ولَعَادَتْ كل تلك الذكريات وعصرتْ قلبي النازف، وتفجرذت من جديد في أعماقي نازعة غشاء النسيان الرقيق، الذي تعبت كل هذه السنوات لتغليفها به.

ماذا فعلتُ بكل تلك الكتب التي قرأتها بتلذذ وظمأ؟! أطنان من الورق حشوتها في دماغي عبثاً!! لو بدأت بالكتابة مبكرّاً أين كنت الآن؟ ولكنني كنت خائفاً، خائفاً من القلم، للكلمة قدسيّتها عندي.. قلت فلأختمر أولاً.. ولأتشرّب من ينابيع الثقافة بحقولها الثرّة.. ومن ثم تنتج العصارة.. وها هي السنوات تمضي والأيام تعبر ولا إنتاج ولا من ينتجون!.. الأفكار تتبخّر من ذهني كالرذاذ المتطاير. أيضاً كان هذا الحساب خاطئاً كحساباتي الأخرى...

ولكن.. إلى متى سأبقى أعذب نفسي هكذا؟ إلى متى سيبقى الندم يتآكلني؟! ألا يمكن البدء من جديد؟ أجل.. يجب المحاولة ثانية.. يجب الانطلاق مجدّداً.. شجرة الحياة تبقى خضراء كما يقال.. يجب الإمساك بالمستقبل قبل أن يفلت نهائياً من قبضتي، وإلا ماذا إذن؟

أشعر بخمول.. أوه.. هذا النبيذ اللعين فعل فعله معي.. أشعر بجسدي خفيفاً كالهواء.. والساعة لم تتجاوز العاشرة بعد.. لا يمكن أن أنام الآن.. على الأقل ساعتين أخريين.. ليبدأ العام الجديد ولأتمنى لنفسي عاماً جديداً ليس سيّئاً كهذا!! هذا يكفيني.. لن أتبجّح بعد الآن.. كنت أطمح للكثير الكثير وهأنذا أرضى بالقليل القليل.. ولكن يجب أن أتنشّط قليلاً، كيف؟!

... هيء هيء، حسناً فعلت، هذا الماء الساخن يعطيني الحيويّة.. يا أخي هذه التدفئة المركزيّة إنجاز حضاري فعلاً، سأنهي غسل جوربيّ في دقائق.. أشعر بالنشاط يدبّ في مفاصلي من جديد.. جميل أن تكون المياه الحارّة متوفّرة في المنازل دوماً.. جميل يا أخي جميل، وإلا.. ماذا إذن؟!

حلب

مرثية الشاعر محمد البخاري

حسن فتح الباب

ما كانَ لي أنْ أرثيَكْ
وأنتَ أبْقَى أنت أدْنَى
من دَمِي
طيفُكِ أحْنَى . . إن تَزُرْني يشتعلْ
رمادُكَ النَّدِيُّ . . . تنطفىءْ
جَمْرة عَتْبي . . . ألَمي
أنك اخلفتَ الذي وعدتْ
نَمضي معاً
نَبقى معاً
ودَّعتَ ما قليتْ
رَحلتَ ما ودعتْ
لِمَ الرحيلُ في الضُّحَى
مِنْ قبلِ موعدكْ؟
يا زَمَنا ضيَّعَنا . . . وضاعْ
يا وَطَنا روَّعَنا
عِشْقاً إلى المماتْ
نفديكَ . . لن تباع
يا أيُّها الرّبّ المُطاعْ

●

إنَّا على العهد القدِيمْ
أنتَ المُقيمْ
أنا جناحُك اليتيمْ
آتيكَ مَجنوناً حكيماً . . التقيكْ
غيماً لِناري . . تَلتقيني جنَّةٌ مُستَعِرةْ
يا مَلَكَ الأعرافْ
فردوسُك المدينةُ الحبيبةُ المُوصَدَةُ الأبوابْ
جحيميَ الحريةُ الغريبةُ الديار والصحاب
سحر مريبْ
لأنك امتلكتَ روعة اليقين لم تكن
قِدِّيسُهمْ

لأنك الملهَم سرُّ الخلق سِحَر الشُّحنة المُفَجِّره
باعوك للأشباح
مُغلَّلا مُرتَهنا مَلْكاً على الأطياف
من ذا رآكَ أمسِ من نقادنا القياصره؟
من ذا يراكَ اليومَ من كهاننا السماسره؟

وحين جئتَ ربَّهم توافدوا ليشهدوا
وليمةَ الفراشة المحتضرة
والقزّ يكسو حامل الأسفار
النهرُ لا يجف
والسدُّ لا ينهارْ
لكنما فرعونْ
ما زالَ يَحدُو السَّحَره

●

اليومَ ينفضُ السُّرادقْ
تجلُو السناجقْ
واليومَ لا تنفضُّ سوقُ الصيرفه
صاغُوا قلاداتِ العقاربْ
دقُّوا طُبولاً فوقَ قبرِ المَعْرِفه
زفُّوا العناكبْ
واستَنْفَرُوا للعُرسِ أَفَاقي المواكبْ
أنتَ البديعُ المُستباح
طاوٍ ولا كلّ الطهاه
ثوبٌ رويد
تُغنيه عن عُرْيٍ صلاه
صيدٌ وَليد
خيرُ الفـدا نعمَ الزكاه
مدُّوا الأواني والنّمارقْ
أنتَ الخوانْ
أنتَ اليدانْ
أنت الشّواءْ
ما كان أشهى لحمك المقدودَ

يا ظبيَ الأراكْ
جِسرٌ إلى الأخرى حماك
قَهر على الدنيا قِراك

●

النيلُ أنت القاعُ يخفى
عن عيون الرُّغوةِ الحمقاءِ
والموجِ الضريرْ
دَارتُك الممدودةُ الرِّحابِ
مِن نَداك كعبةُ الرفيقْ
ظلٌ فقيرْ
مُلْكٌ وثيرْ
سقيفةُ الودادِ في الضَّراء والسَّراء
لا سرّاءَ في ممالِك السنابكِ المتوجهْ
يُؤكَل لحمُ الشهداء
في زَمَن المُرتزقه
عينانِ .. تخضلاّنِ بالشَّجْوِ البهيجِ .. بالرَّمدْ
إرثُ القُرى ... طولُ السُّرى
دمعُ السَّواقى المُغْرَقَه
كُحْلُ العيون المُطْفَأة
بقيَّةُ المَوَّال تحت الخيمةِ المهتَرِئَهْ
والقلبُ ينبوعُ .. حَجَرْ
يُعْطِي ويَفْنَى أَلَقا
يفْنِي ويَبْقَى حُرَقا
يا عطشَ البحار
ويا دَمَ الأنهار

●

باريسُ يا ناعمةَ الليلاتِ
مُرَّةٌ على الغريبْ
مَزارَ عاشقٍ شرودْ
ظلَّةَ شاعرٍ طريدْ

يا طِيبِها بالعَبَق الحنونْ
مِسَلَّة مُغتربه
قيثارة مُلتهبه
والغيمُ والشعاعُ يا حُلْمَ السجينِ
يا مِراح المترفينْ
باريسُ يا بهجَتنا أكبادَنا المنفَطِرَهْ
عُرْسَ مآتم العناهْ
دوحةَ أحبابِ الحياهْ
(عيونَ إلزا) وجنونَ الأُمسيَات الشَّاعِرَهْ
مقاصلَ الأحِبَّة المُهاجره
باريسُ يا ترتيلَ غانيه
يا عاشقَيْنِ افْتَرقا
وثائِرَيْنِ اعْتَنقا
سحَرَ المدائنِ المُعَطَّرَه
والشُّعَلِ المنكَسِرَه
تُراكِ أصغيتِ إلى خطوته
دانيةً كرعشة الندى على كئوسِ داليةْ
وانيةً فوق رَصِيفِ (السِّين)
شمعة على الغروبْ
خفقتِهِ . . . . ابتسامَتِهْ
لخطوْ طِفْلَتَيْنْ
لهَمْسِ عُصْفُورَيْنْ
في غابةِ العُشَّاقِ كُلّ اثنينِ يرفُلانْ
في ثوبِهِ الحاني
في قلبِهِ العاني
باريسُ كنتما خَمِيلَتَيْ غرام
فأينَ أَخْفَيتِ لديكِ زهرَتَهْ
نجمتَه الخضراء
غُنوتَه الخافتةِ العذراءْ
جبينَه المُغْضَّنَ الأغرْ
لوحَتَه بلا إطارْ
وصمتَهُ الكنارْ
ليلَتَهُ الأسرارْ
وحُلْمَهُ النَّهارْ
والنَّظرة انبهارْ
شجًى . . . مُنًى . . دُوارْ
سمعت رجفتَهْ؟
أم أنَّكِ الوردةُ والسكينْ
الطاعنُ الطَّعنْ؟
حديقةُ الوَهْمِ أم الثُّوَّارْ؟
(بودليرُ) أم (إيلوارْ)؟
باريسُ يا عشقَ (أراجونَ)
ويا فجرَ (البُخَاريُّ) الجميل
يا عمرَهُ القَصيرَ، يا جناحَهُ المُحَلِّقَ الأَسِير
يا خوفَهُ انكسارَهُ إصرارَهُ
يا ضعفَهُ جسارَتَهْ
مرارَتَهْ
إشراقَتَهْ
القمر القبر السَّماء
الجنَّة الأفعَى
(ناظم) والمَنْفَى
مَأْوَى ولا مَأْوَى
باريسُ يا باريسُ يا أيَّامَه ليلاتِهِ الحرارْ
أفديكِ إنْ أرجعتِهِ غمامةً مسحورةً
ثوباً على صَبِيَّةٍ نِيلِيَّةِ الخَدَّيْنْ
تَمشِي على اسْتِحْياء
حتى تُداري شَبَقَ النَّهدَيْنْ
من عَضَّةِ الذئاب
وعَضَّةِ الأمعاء
أفديكِ إن أَرْجَعتِهِ أغنيةً
حتى يحينَ الموعدُ القريبْ
لقاؤُنا الحبيبْ

●

طَوَّفتَ ما طَوَّفتَ هل رأيتْ
غيرَ انكسارِ الوَترِ الرَّخِيم؟

غيرَ انتصارِ النّاعقِ الرَّجيم؟
غيرَ انتحارِ الشرُّفاء؟
يا شهْقةَ النايِ الحزينِ ساعةَ الأصيلْ
يا نزْفةَ الشّادوفِ تحت الخَشَبِ المسنونِ
تحتَ الطينْ
يا شَجَنَ الكافورةِ الشّامخةِ الجَرْداء
يا صفصافةً خضراء
تُظلُّنا إذا قسا الهجير
غمامَةً لابنِ السَّبيلِ يا صَفيَّ لضُعَفاءْ يا بلبلَ العُشِّ الكسيرِ
يا شهيداً
يا نَجِيَّ الغُرباء

●

شَخَوْتَ ما أبْقَيْتْ
سهرت ما أصبَحْتْ
إلا بقايا من وَجيبْ
مُرَقْرِق القصيد
ذِكْرى مُقاومٍ عَنيدْ
طَيف حبيبْ
رحلتَ ما خلَّيْتْ
ريشة عُصفورٍ مبلَّل الجناحِ
مات بالظَّمَا
كفنَّه النيلُ بموجتينِ حين ضنَّ
أن يَسْقيه قطرتين من رحيقه المُباحِ
أن يمسحَ عن فؤادِه النبيلِ
ما أضناه من جراحِ مجدِنا وسُقْمنا
عذابِ حبِّنا ومقتنا
غُربتنا فوق سفين السفهاء وانتمائنا
إلى أشرعة البَحَّارة العُراةِ
فوقَ الريحِ ، كانت صرصراً
والنَّوءُ كان عاتياً
والخوفُ غال وحسنَ (طيبةَ) الخضيبَ
وانتمائنا إلى قوائمِ (المُناصيرَة)

والقومُ جابوا الصخرَ بالواد
مثقوبةً . . دُمًى . . رمادا بعد حربٍ نَخرَهْ
من فوقها مُدَّتْ عِظامُ الفَجْره
أحذيةُ الفاشيَّة المندحره

●

يا أيُّها الفجرُ الكَنارُ الزاهِدُ المنارُ
يا صُبْحا تجلّى فارْتَمى
نُسَّاكُ عرشِ الإفكِ وانهلَّ الغمامُ المُشْتَهى
قامت قيامةُ العَذارى حاملاتِ اللّوتَسِ المضفورِ
إيزيسيَّةِ العينينِ من عشقٍ
ولا دمعَ على (أوزيرَ) لم يمتْ
وأنت حيٌّ بيننا
حتى ترى (حوريسَ) مجلواً على صدر الأُفُقْ
يُهديكَ زادَ الرحلةِ الموعودةِ المُدَخَّرَهْ

كأسَ حليبٍ . . . تَمْرةً
لِوَجنتيْن غاضتا
يُهديكَ غابَتَيْ حَنانْ
لقُبلتَيْن غابتا
أُغنِيَتيْ كرْوان
لمُقْلتينِ غامتا
قصيدةً لِرُوحنا المنتصره
تعودُ محبوراً مُكَلَّلَ الجبينِ
سَيِّدَ الشَّجَى
تُطلُّ للغربِ المُضَوأ الرمادِ
للهلالِ للهَرمْ
لِلنّيلِ . . ثم تختفي وراءَ هالةِ السَّحَرْ
مُبتسماً . . مُوَدِّعاً
تنامُ في حِضْنِ الشَّفَقْ
حتى تعودَ مَرَّةً أُخرى . . تزورُنا
إذا أنزلَ (حوريسُ) القمَرْ

في البحث عن إيقاعات جديدة في الشعر العربي

عبد الكريم يحيى عبد الكريم

منذ زمن ليس بالقريب، يتردّد في ذهني سؤال أصبح هاجساً ملازماً، سؤال ينصّ علىٰ ما يلي: (أيمكن للجملة العربية أن تعطينا تفعيلة أو تفعيلات لم يطرقها الشعر الغربي، ولم تدخل عروض الخليل بن أحمد، أم أن التفعيلات المعروفة في علم العروض هي كلّ ما يمكن أن توفّره وتسمح به الجملة العربية والتركيب اللغوي العربي؟).

أعترف أنّ لهذه الفكرة من الجاذبية والسّحر ما يدفع بالمرء إلى أبعد الحدود رغبةً في تجسيدها، وقد تشطح به في تهويمات بعيدة عن الواقع. إنها أشبه بالمغامرة في ارتياد المجهول وكشف المناطق الخبيئة، بما لها من جاذبية تأسر النفس.. وبما فيها من خطورة أيضاً.

لقد حاول الدكتور كمال أبو ديب أن يجد بديلاً لعروض الخليل في كتابه القيّم (في البنية الإيقاعية للشعر العربي ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٧٤) وقد توصّل الدكتور أبو ديب إلىٰ أنّه يمكن من الناحية الرياضية البحتة (بغضّ النظر عما يمكن أن يوفّره التركيب اللغوي العربي من إيقاعات) أن تتشكّل لدينا إيقاعات لا نهائية من النواتين اللتين يجعلهما أساساً للإيقاع العربي [فا، علن]. وبرأيي إنّ إعتماده علىٰ هاتين النواتين (الذي بسّط إيقاعات الشعر العربي بلا شكّ) قد أوقعه في متاهة الإيقاعات التي يمكن أن تتشكل عنهما.. ولذا لم يكن ممكناً له أن يحدّد آفاقها.

في هذه السطور حاول الإجابة عن السؤال الذي طرحته في البداية، وتجسيد تلك الفكرة التي انبثقت من ذهني، وبدايةً أحبّ أن أنوّه إلىٰ أنّني بعملي هذا، لا أنصّب من نفسي مشرّعاً عروضياً بأيّ حال من الأحوال، وإنما أرغب في استكناه ومعرفة حدود هذه الإمكانية الإيقاعية العربية، ومعرفة ما لم يستخدم من هذه الإمكانية في الشعر العربي. كما أشير إلىٰ أنّ الذي جدّد هذه الفكرة في ذهني هو مقال الأستاذ عدنان بن ذريل المنشور في جريدة (الأسبوع الأدبي) الصادرة في دمشق عن اتّحاد الكتاب العرب ـ العدد ٢٢ ـ ٣ تموز ١٩٨٦.

للغاية المذكورة سأقوم بمسح إحصائي لما يمكن أن يتشكّل من تفعيلات (بغضّ النظر مبدئياً عمّا يمكن أن تعطيه الإيقاعية العربية، وبغض النظر عن حدود الإيقاع التي تفرضها الجملة العربية، فقد ينتج لدينا إيقاع لا يمكن للجملة العربية أن تعطيه.. وإذا أعطته فهي تعطيه بصعوبة بالغة). وسأعتبر هنا أن البنية الإيقاعية تتألف من مقطعين:

١ ـ المقطع المكوّن من (متحرّك وساكن يليه) وسأسمي هذا المقطع بالمقطع المرسل وسأرمز له بالرمز (٥).

٢ ـ المقطع المكوّن من (متحرك لا يليه ساكن).. وسأسميه بالمقطع المقبوض وسأرمز له بالرمز (/).

وفيما يلي المسح الإحصائي للتفعيلات المتشكّلة:

١ ـ التفعيلات من مقطعين:

٥ ٥ فَعْلن (متدارك)
/ ٥ فَعَلْ (نصف متفعلن)

٢ ـ التفعيلات من ثلاثة مقاطع:

٥ ٥ ٥ (مرّة ونصف من فعْلن)
/ ٥ ٥ فعولن (متقارب)
٥ / ٥ فاعلن (متدارك)
/ / ٥ فعِلن (متدارك)

٣ ـ التفعيلات من أربعة مقاطع :

ه ه ه ه فعْلن مكرّرة (متدارك)

* *

/ ه ه ه مفاعيلن (هزج)
ه / ه ه فاعلاتن (رمل)
ه ه / ه مستفعلن (رجز)

* *

/ / ه ه فعِلاتن (رمل)
/ ه / ه متفْعلن (رجز)
ه / / ه مستعِلن (رجز)

* *

/ / / ه مُتعِلن (رجز)

٤ ـ التفعيلات من خمسة مقاطع :

ه ه ه ه ه تكرار لـ (فعْلن)

* *

/ ه ه ه ه مفاعيلاتن (تفعيلة جديدة).
ه / ه ه ه فاعلن فعْلن (متدارك)
ه ه / ه ه مستفعلاتن (تفعيلة جديدة مبدئياً)
ه ه ه / ه فعْلن فاعلن (متدارك)

* *

/ ه / ه ه متفعلاتن (تفعيلة جديدة ملحقة بمستفعلاتن)
/ ه ه / ه مفاعيلها[1] (تفعيلة جديدة)
ه / ه / ه فاعلاتها[1] (تفعيلة جديدة)
/ / ه ه ه فعِلن فعْلن (متدارك)
ه / / ه ه منفعلاتن (ملحقة بمستفعلاتن)
ه ه / / ه فعْلن فعِلن (متدارك).

* *

/ / / ه ه مُتعلاتن (ملحقة بمستفعلاتن)
ه / / / ه فاعلتها (ملحقة بفاعلاتها)
/ / ه / ه مفاعلتن (وافر)
/ / ه / ه متفاعلن (كامل)

* *

/ / / / ه تفعيلة معقّدة (لا تسمح بها الجملة العربية إلاّ في النادر).

٥ ـ التّفعيلات من ستة مقاطع :

لن نتّبع هنا نفس الدراسة السابقة لكي لا نقع في التكرار.

/ / ه / ه ه متفاعلاتن (ليست جديدة تماماً . . . لأنها معروفة في نطاق ضيّق من بحر الكامل)
ه / ه / ه ه فاعلن فعولن[2]

مناقشة المسح الإحصائي :

١ ـ نتج لدينا عشر تفعيلات جديدة مبدئياً وهي : مفاعيلاتن ـ مستفعلاتن ـ مفاعيلها ـ فاعلاتها ـ متفْعلاتن ـ منفعلاتن ـ متَعِلاتن ـ فاعلتها ـ متفاعلاتن ـ فاعلن فعولن.

٢ ـ فيما يتعلق بالتفعيلة (مستفعلاتن) فهي ليست جديدة تماماً . . . ولكنها ناتجة عمّا يسمّيه الدكتور صفاء خلوصي ببحر (المنسرح الأحذّ) في كتابه (فنّ التقطيع الشعري ـ ص ١٥٢)[3].

وبناءً عليه يمكن إلحاق التفعيلات (منفعلاتن ـ متفْعلاتن ـ متعلاتن) بالتفعيلة (مستفعلاتن).

٣ ـ يمكن إلحاق التفعيلة (فاعلتها) بالتفعيلة (فاعلاتها).

٤ ـ يمكن من الناحية النظرية، باستخدام هذه التفعيلات واستخدام التزاوج فيما بينها أو بينها وبين التفعيلات المعروفة أن نحصل على إيقاعات أو بحور جديدة خارج عروض الخليل.

ولمعرفة أبعاد التفعيلات «الجديدة» المتشكّلة، أستأذن القارىء بإيراد بعض الأمثلة التطبيقية التي شكّلتُها وفق هذه التفعيلات :

أ ـ مفاعيلاتن :

أضعتَ الأرضَ[4] . . وكانت عندكْ
وكانت جزركَ . . كانت مدّكْ
فأين القلبُ؟
وأين الماءُ؟ وأين العشبُ؟
أضعتَ الأرضَ ـ أضعتَ الأرضَ . . فمات الحبُّ!

*

يلاحظ على هذا الإيقاع أنّ فيه شيئاً من بحر المضارع، ولكنّه يتخطّاه ويضيف إلى النغمة أفقاً أرحب وأجمل.

ب ـ مفاعيلها:

كساهُ الرّمادُ ـ كالوهم ضاع في اللامدىٰ
وذاب النّهارْ
وغار النّداء جرحاً علىٰ ذراع الصّدىٰ
.. وهذا منارْ
يغنّي لعشبة المبتدىٰ
ويأسىٰ لنارْ.

كما نرىٰ، هذا الإيقاع هو أقرب إلى إيقاع «فعولن» منه إلىٰ أيّ إيقاع آخر.

جـ ـ متفاعلاتن:

سيطلّ كالسّحر علىٰ رؤايا
ويحلّ بي مثل حمامةٍ أو شجرٍ صديقِ
وسيلبس السّاقطَ من خُطايا
ويُعلّق العشبَ منارةً في حجَر المرايا
فأرىٰ طريقي
في عالم يغرق بالحريقِ.

إيقاع هذه التفعيلة يدخل عباءة الرّجز ويغيب فيها حيناً.. ويخرج منها حيناً آخر.

د ـ فاعلاتها:

أيّها الغريبُ الذي تجَلّىٰ كطائرِ
أنت حلمنا
أنت إسمنا
أنت أغنياتٌ خبيئةٌ في السّرائرِ
إنتفض بنا
وانتعش بنا
أنت زقزقات البشائرِ

إنّه إيقاع مركب.. يشبه في ذلك البحر البسيط المعروف.

هـ ـ فاعلن فعولن:

هل أبىٰ جميلٌ زهرةَ المسّوادِ
أم رأىٰ رمادي؟
وجهه كتابٌ ناصع المدادِ
وجهه شموسٌ عانقت صباحي
عانقت رياحي
في مدىٰ ربيعٍ راعشِ الأقاحي.

*

يلتقي هذا الإيقاع مع إيقاع الرّجز، ولكنه في إعتقادي يضيف إليه إضافة مهمّة.

* * *

وبعد..

ما النتيجة التي يمكن أن نخرج بها من هذا العمل؟

نلاحظ أن معظم التفعيلات التي اعتبرناها جديدة، يأخذ شيئاً ما، صغيراً كان أم كبيراً، من الإيقاعات المعروفة.. فنسأل:

أيمكن أن تكون هذه الإيقاعات قد خطرت ببال الشاعر العربي القديم وجالت في نفسه الشاعرة؟

وإذا كانت قد جالت في نفسه الشاعرة، فهل طوّر عنها الإيقاعات المعروفة لدينا أم ماذا؟

أسئلة كثيرة تخطر بالبال، وستنبثق أسئلة كثيرة أخرىٰ، ولكنها ستبقى بدون أجوبة.

إنّ وصولنا إلىٰ النتائج السابقة لا يعني أنّنا نزعم أنّ هذه الإيقاعات بالإضافة إلىٰ الإيقاعات المعروفة هي كلّ ما يمكن أن يتشكّل لدينا من الجملة العربية.

ولكن السؤال المطروح الآن هو: هل يمكن لهذه الإيقاعات الجديدة المتشكّلة أن تضيف جديداً إلىٰ الشعر العربي؟

هذا هو السؤال!

إشارات:

(١) يلاحظ أننا خرجنا في التسمية عن أحرف التقطيع العشرة (لمعت سيوفنا).
(٢) لم نجد تسمية أفضل من هذه التسمية.
(٣) راجع مقالة عبد الوهاب محمد الطيار في مجلة الطليعة الأدبية ـ آب ١٩٧٩ ـ الصفحة ١٢٥، وفيها أمثلة عن هذا البحر من شعر معروف الرصافي وابن المعتز وصفي الدين وغيرهم.
كما أن للشاعر أدونيس، مقطعاً شعرياً يسير وفق هذا الإيقاع بعنوان (الهزيمة) في ديوانه (أغاني مهيار الدمشقي) ـ ساحر الغبار.
(٤) نعتقد أنّ (مفاعيلاتُ) في الحشو أفضل من (مفاعيلاتن) لأنها تعطي للإيقاع تأثيراً أكبر وانسجاماً أحسن.

الوطن المنفي

إلى شهداء حمام الشط

مهدي محمد مصطفى

ما الذي ينحني في الوطنْ
يفتحُ البابَ للانكسارْ
يغرسُ الحزنَ ـ عند المساءْ . . .
في عيونِ الصغارْ
ـ ذكّرتني التواريخُ أنَّ الشواهدَ،
باقية في المدارْ
غير أنَّ دمي،
يسكن المتعبينْ
والشتاءُ يفجرُ فيهِ الجياعْ
ها أنا أرتمي
فوقَ جرحكِ كي تنهضي،
من دمي يا امرأة
في انعطاف الطريقِ
رأيتكِ وجهاً يتيمْ
تنحتينَ المراثي
وتغتسلين بليل الرمادْ
تلخلين سراديبَ من توّجـوكِ علـى الانهيارْ

بين قوسينِ نحيا
فمن ذا الذي ينحني في الوطنْ
الجنودُ أم الفقراءْ
يهبطُ الآن جيشُ الدفاعِ المقاهي
ويسرقُ تاريخَ من علّمـوكِ القيامهْ
يوم علّمْتِني أن أموتَ،
فويق الوطنْ
غارساً في الثرى أضلعي سنبلهْ
يتها المرأةُ البائسة
مُذْ متى
ضائعاً ـ أرسم الجذر مدّاً
وأستافُ طعمَ الظلامْ
أمتطي صهْوَةَ الحُلْمِ ،
والقهرُ منكِ إليَّ ـ يكونْ . .
واغلاً في منافيكِ،
جئتُ أمُدُّ الجسدْ
تَحْتَ خُفَيْكِ، كي تصعدي . .
علّموني صغيراً

وكنا رسمنا جبيناً وقامهْ
وانتصرنا على طائراتِ الورقْ
ـ كانـت الطائـراتُ تُفَتّـحُ جرحَ الحكاياتِ
تنهضُ من غرفتي . . .
لم يعدْ عنترهْ
في اتّقادِ القصائدْ
في صهيل الخيولْ .
في انفجارِ القنابلْ
. . . .
أيّة امرأةٍ
سوف تندفُ هذا الضياعْ
من عيون العربْ . .
ما الذي ينحني في الوطنْ
يفتح الباب للانكسارْ
يغرس الحزن عند المساءْ
في عيون الصغارْ

جسد لا رأس له

ابراهيم زيدان

أَوْدَعني في الظُّلْمهْ .
قالَ تيقَّظْ.
ثمَّةَ أشباحٌ هَرِمَهْ .
سَتَمرُّ عَليكَ ،
وَتُلْقي فيكَ ،
وَساوسَ مُخْتَدِمَهْ
فارْقَـبْ خَطْوَ ظِلالِكْ .
لا شيءَ ،
سيُؤْوِيكَ هُنا
غيرُ سُؤالِكْ .
وَبَقايا ضوءٍ
تأكلُهُ الحطمهْ .
أَوْدَعني في الشكِّ ،
وَأَوْصاني
أنْ أحفظَ أَسْرَاري .
لكنّي مِنْ خوفي .
أَفْشيتُ بناري .
لدروبٍ مُزْدَحِمهْ .
بدماءِ الوَرْدِ ،
وَقَتْلى الحُلُمِ المَذْبوحْ .
وَدِيارٍ مُنْهَدِمَهْ .
وَفضاءٍ مَجْروحْ . .
أَوْدَعني
ما بينَ الصَّحْوةِ والنومْ .
وَمَضى
يرسمُ شَكْلاً مُخْتَرِقاً
كَحَقيقةِ هذا الوَقتْ .
وَصراخٍ
يَسْقطُ في اللاّصوتْ .
لكنّي في الآخرِ.
أَدْخلُ في الوهمْ .
أَعْضائي يابِسَةٌ .
وَأَنا
جَسَدٌ تأكلُهُ الطُّرقاتْ .
لا رأسَ لَهُ .

"ليت المعري كان أعمى"

علي الشلاه

كان المعري جارنا
كلٌ يسائل بيته
من ذا يقود الليل في وضح النهار؟
من ذا تشاركه الكآبةُ ثوبها
وتفيق آهـاتُ الثكالىٰ
وعلىٰ يديه حصارها
والآهُ منفىٰ كالضلوعْ
من ذا الذي لبستْ له
شمسيُ الظهيرةِ عهرها
وانهدّ جرم الكون في اعصاره

لكنه لم . . .
هل تقبلُ التجريدَ لم؟
فليتئد . . كل المشانق تبتدي
من أصغريه
والناس من لغةِ البداوة
ينهلون عروشهـم
والعرشُ بيت الله أو لحدُ

الملائك يا معرّه . .
أين البصير بليلةٍ لا صبح فيها
والنساءُ نجومها
ولعلها قد اطفئت

* * *

شيخ المعرّة جاءهُ الروحُ
الأمين مرتلاً سِفْرَ التوجس عالياً
(أمسكْ عصاكَ مآربُ أخـرى بهـا
وآقذفْ عصاكَ مآربُ السجن انتهتْ)
ليت المعري كان أعمىٰ
فالعيونُ مقاتلٌ عند النساء
وعند تجار الحروبْ
فلتشتعل برؤوس نيرونَ المذابل
ولينتعش رأسُ الحسين
هذا المعري قد رأىٰ
والكون أعمىٰ
ورآكمو سيفاً يقارع بعضهُ

جرحاً تداويه الجراحْ
أين الضحية يا أخي
كلٌ بواديه شهيد
وئد الضمير بداخلي
قال الجراح لقاتلي
لن ينثني يطعـم الغيلان بحـره
لكنه قد يتئد

* * *

مولاي: هل وصل الوصول لواحتك؟
لم ينتبه أحدٌ وما بقيت معرّه
فليشكر المحبوس ربّه
في المحبسين
لو أبصر المحبوس ظلّه
لم تختلج آياتُ فكره
في أصغريه

القاهرة

قصة قصيرة

أدرب نفسي على الجنون

محمد سعدون السباعي

أجاهد، بكامل طاقتي الذهنية أن أُركز على يديّ الراجفتين دون سواهما، وأنا أجمع أوراق المعاملات إلى بعضها، محاولاً أن لا تتبعثر على الأرض فأتحول إلى هدفٍ سهل للسخرية. وهذا ما يجعل المعاملات تتراكم أمامي، أو أدفعها ناقصة، فأشعر لذلك بالحزن والتعاسة والعار سواء من نفسي أو من المراجعين والموظفين وكذلك من رئيسي في العمل الذي كان قد منحني، قبل أن أصاب بالتحولات العصبية الأخيرة، كتاب شكر بناءً على «روحي العالية في تقبل النقد وتجاوز الأخطاء». أما وقد ساءت أموري الوظيفية بالشكل الذي لا يمكن السكوت عليه، كما صرح، بهمسٍ أو بصوت مسموع الكثير من الموظفين، فقد استدعاني رئيسي.

حدق بوجهي ملياً وهز رأسه بشيء من الأسف. وقد ظهر في عينيه ما يشبه اللوم! وكلام مثل:

«لا باس، سيجيء دورنا نحن!».

ثم أوصى بمنحي اجازة لأسبوع كامل، ونصحني أن أتدبر أمري. وبناءً على توسلات زوجتي وأهلي وإلحاح البعض من الأصدقاء، فقد استشرتُ طبيباً مختصاً في الحالات النفسية والعصبية.

قاس نبضي وضغطي وحرارتي.. حدّق في لساني وداخل أجفاني، وضغط برفق على أظفاري وطرق، بمطرقةٍ من المطاط، على مفاصلي، ثم سألني سؤال الأطباء التقليدي:

— «ما الذي تشكو منه»؟.

وبما أن أسباب قضيتي بسيطة وواضحة، هكذا خُيل لي، فقد ارتخيتُ بمقعدي، وكان واسعاً مبطناً بقطيفةٍ خضراء زاهية.

قبل أن أدخل في التفاصيل، أشرتُ عليه أن يطرح سماعة هاتفه جانباً. لعلني كنتُ بطلبي الساذج هذا، فرجل في مثل وظيفته - بمدينة واسعةٍ ملأى بمرضى الأعصاب، بدليل العدد الهائل منهم المركوم كالأسلاب في غرف الانتظار الضيقة الذي كنتُ أشاهده خلال مراجعاتي المتكررة لسكرتيره قبل أن أفوز بموعدي هذا من أين له الوقت لسماع شكواي إلى آخرها! أقول. لعلني كنتُ شغوفاً بأن أحكي قضيتي بإسهابٍ، بنفسٍ واحد. أحكيها وأتخلص منها إلى الأبد!

ابتسم بوجهي. وفعل ما طلبته. زادني تجاوبه بمثل هذه السرعة والبساطة ثقة بما ستؤول إليه أموري، فتلك بادرة جيدة ومشجعة من طبيب نفساني. «في الليلة التي سبقت مرضي تعشيتُ طعاماً كالذي يعتاش عليه تسعة أعشار سكان المدينة: خبزاً وباذنجاناً مقلياً وشاياً ثقيلاً. تجشأتُ لكني لم أذكر الله بالشكر فأبي يكفينا جميعاً في مثل هذه الأمور. شاهدتُ في التلفاز أغنية خفيفة وإعلانات عن اليانصيب والحلويات وأثاثاً يباع للأعراس دون سن العشرين، بالتقسيط. ثم حلقة من المسلسل اليومي - دخان البنادق -. كان الدخان من الكثرة بحيث فتحتُ شبابيك الغرفة على مصاريعها بالرغم من برودة الجو.

حولتُ جهاز التقاط الارسال على قنال مدينة مجاورة. كان الثراء هناك واضحاً ومؤكداً. أنهم لا يعلنون عن الأشياء

الصغيرة والمتواضعة كالتي يعرضها تلفاز مدينتي. مشغولون بأشياء المدن الكبرى الثرية كالبورصة وسباقات الخيل والسيارات والسفرات على اليخوت التي تشبه القصور الصغيرة العائمة. فجأة صرختْ طفلتي متخلصة من أحضان أمها، حين ظهرت دعاية عن حليب «نيدو» يفوّم داخل أقداح زجاجية طويلة، وركضتْ صوب زجاجة التلفاز فاتحة فمها الصغير بشراهة غريبة. أمسكنا بها وضحكنا، كما لو أننا لم نضحك في حياتنا من قبل. ولأول مرة عرفنا أن الافراط في الضحك يكسو الوجوه، في الأخير بمسحةٍ شبيهة بمسحة البكاء!

أطفأنا الجهاز ونهضنا، بالتناوب، نتبول استعداداً للنوم.

أعترف لعلها تفاصيل عادية وغير ذات أهمية لأحد. غير أنني أذكرها بأمانة المريض التواق إلى علاج ناجع، إذ لعل فيها ما يسهل على الطبيب تشخيص حالتي. وحلمتُ ليلتها: «أنني أقف في قاعة معبأة برائحة القِدم. مكعبة وواسعة بعدة أبواب متداخلة. ثمة رجل نحيل ببدلة داكنة ولحية مدورة كالحال عند سكنة الصحراء. كان منهمكاً بقراءة ورقة صغيرة بواسطة عدسة مكبرة.

أثارني العدد الهائل من أجهزة التلفون المرصوفة كالسلاحف، بكل الألوان، وبمختلف التصاميم، على امتداد مكتبه الضخم وعلى مناضد صغيرة من الزجاج المنقوش، خلفه ومن حواليه والبعض الآخر على الأرض. كانت التلفونات من الكثرة والتنوع بحيث أيقنتُ، دون أن يقول لي أحد، أن كل ما يدور في المدينة، الشوارع والبيوت ومخادع النوم وأماكن التسلية البريئة بمتناول يده.

كان يقرأ بالمكبرة ويرد على المكالمات حاملاً الأجهزة على كتفيه وخلف أذنيه وبين أصابعه في آن واحد. منظر مهيب، لكائن ذي مهارة مدهشة حقاً!. وللحال تذكرتُ كيف كنا قد ضحكنا تلك الضحكة البريئة والسخيفة معاً على طفلتي حين هبت راكضة صوب أقداح الحليب. وكيف كنتُ قد تذمرتُ قبل ذلك من رائحة الباذنجان المقلي وطعمه. وقلتُ: «من المؤكد أنه قد أحيط علماً بكل ذلك». وسمعتُ قلبي يدق.. يدق في أذنيّ. وتذكرتُ أهلي وكيف أنهم بدورهم كانوا قد ضحكوا معي وتذمر بعضهم من الباذنجان المقلي. وقلتُ: «سأجدهم أمامي!» وشعرتُ برعدة هائلة ترجني. وبشيء مكتوم لا تسعه حنجرتي أشبه بالصرخة أو الاختناق المفاجىء.

قربوني منه إذ دفعوني دفعاً إليه وذلك بشيء من اللطف لكنني أحسستُ بشيء ما ينخس في لحم ظهري، أظافر رؤوس حراب فوهات مسدسات أو شيء من هذا القبيل. بل لعلهم لم يفعلوا شيئاً رديئاً، وأن ذلك كان مجرد خيالات أوحتها جلالة المكان وبلبلة ذهن متطير إذ رأيته يترك الورقة والعدسة المكبرة والتلفونات المعلقة حول رقبته تسقط ويتقدم نحوي.

كان يبدو عليه مظهر من أرهق نفسه، دونما رحمة، في عمل لا طائل من ورائه!

فتح عيني وبصق فيهما.. فتح فمي وبصق بداخله.. قرب وجهي إليه أكثر وبصق على ناصيتي وانسحب مثلما تقدم دون جلبة أو انفعال من أي نوع لدرجة خُيل إليّ أنه إنما يقوم بطقوس روتينية مسلية، حتى انني فكرتُ بأن أضحك وأشكره واعتذر لما سببته له من مضايقة ومضيعة للوقت. وبينما كنتُ أفكر في مثل هذه الأمور. وأنهم سيطلقون سراحي، فقد أخذت عقوبتي ودون أن أجرؤ على مسح البصاق من على وجهي إذ قد يفسر عمل كهذا لغير صالحي! أطبقوا عليّ واقتادوني إلى الخارج عبر ممر أرضي يربط القاعة بقاعاتٍ أخرى وكراجات وغرف منام مستطيلة أشبه بالثكنات العسكرية. وضعوني داخل سيارة من سيارات السباق، كانت متجهة إلى غرب المدينة. كان الوقتُ ظهراً، لعلها الساعة الثالثة - لا ساعة لديّ فقد أخذوها مع جملة أشياء كنتُ أحملها في جيوبي قبل إدخالي إلى القاعة - كانت السيارة تسير بسرعة ألف كيلومتر! وسط ظهيرة قائظة في مفازة صحراوية مهلكة. ولم يكن باستطاعتي أن أرى غير كثبان الرمال وهي تتداعى إلى الوراء مثل حرائق صغيرة، أو أن أسمع غير صوت محرك السيارة المندفعة بعمى وشراسة وهو يجأر معبراً عن متانة لا حدود لها!

رفعتُ يدي محاولاً، قدر الامكان، تجنيب وجهي من شظايا الشمس اللاسعة. لكن أحدهم أنزلها بطريقة لم أفكر بعدها بتكرار المحاولة!

كانوا قد تركوني هناك في قعر السيارة الساخن أحتقن وأتعرق بمنامتي الصيفية، انني قلتُ في نفسي «لا بأس بهم!».

فجأة أشاروا للسائق، اشارة متفقاً عليها. ضغط على الفرامل بقوة فجأر المحرك بدوي قبل أن تتوقف السيارة مرتجة بحمولتها من البشر. أنزلوني وأوقفوني بمواجهة الشمس.

ثمة سيارات كثيرة كانت تأتي من جميع الاتجاهات بذات السرعة: ألف كيلومتر في الساعة. وتتوقف بنفس الدوي في المنطقة. وعلى وجوه سائقيها علامات البراعة. يهبط منها أشخاص بمعنويات مختلفةٍ. يقدم لهم حراسهم أنابيبَ اسطوانية من مادة خفيفة ولماعة. ترن أصوات الأنابيب وهي ترتطم بالأرض برنين موحش مختلط بعويل ريح السهوب. البعض يتلقفها بمرح ويدخل فيهب بسهولة لا تصدق! ومنهم من يحاول مرة، مرتين ويفلح. وثالث ما إن يبصقوا في وجهه حتىٰ يدخل فيها بشيء من العسر الواضح، غير أنه، في الأخير، يدخل، وهذا هو المهم.

جاءوا بأنبوبٍ. كان فارغاً. خفيفاً يكاد يسقط من الأيدي لنعومته. وكان قطره، كما بدا لي، أصغر من أن يتسع لرأس مثل رأسي. لكنهم ألحوا، كعادتهم دائماً. حاولت لكن دون جدوىٰ.

أوقفوني على ساق واحدةٍ ومروا أمامي برتلٍ باصقين.

- «سنعيدك قرداً تنبش القمامات في الشوارع».

ولك أن تتصور هلعي. تسلخت أذناي وجوانب رأسي. أضحكهم منظري. ودفعهم إلى تكرار فعلتهم الوحيدة: الضحك والبصق والنذير. وفي الأخير وقد أعياهم الأمر كما أعياني، صفعني أحدهم على وجهي بلطمة هشمت الشمس في عينيّ.

الغريب أنني لم أشعر بألم ما للصفعة. كان مجرد صوت أشبه برشق حفنة من الحصىٰ الناعم على لوح زجاجي سميك. ثم دفعني أحدهم فسقطتُ على الرمال بجانب الأنبوب. ومرة أخرىٰ أحسستُ كأن الأمر لا يعنيني! لم أكن مذعوراً ولا حاقداً ولا مصدوماً ولا بأية صفة من صفات الخيبة الانسانية. جسد مكوم وإلى جانبه انبوب أصم يلمع.

- سنجعل منكَ أفضل من يجيد الرقص بين جراء السيرك.

إنهم يتحدثون عن ايجاد نوع جديد من البشر، وبقليل من ضروب المعرفة البشرية المتطورة التي يبدو أنهم يمتلكونها، سيجعلون منه كائناً فائق الرخاء بشرط أن يكون، بالمقابل، فائق الطاعة.

كانت السيارات الأخرىٰ قد عاد معظمها إلى المدينة بأحمالها المعبأة بالانابيب تصفق وتزغرد.

استيقظتُ. ثمة دخان أزرق خفيف يطفو في جو غرفتي. دعكتُ عيني. نهضتُ فشعرتُ بدوار بسيط: «إنني لم أسكر البارحة. ولم أتناول حبوبي المنومة، فقد كنتُ أسهر بجانب جثمان شقيقي الوحيد، كانت الطلقة قد اخترقته من منطقة القلب. ومن يومها وأنا أشعر أنني مطارد داخل طرقات مقفلة. وبقدر ما أود الناس أخشى أن يأتي موتي على أيديهم. ثمة أشباح مهولة غوريلات بشعرها الأسود الخشن. . سراطين بحرية شرسة أسمع هسهسة أقدامها النملية وخطف زعانفها الصافر تترصدني عند المنعطفات. . تسير خلفي، وأيديها داخل جيوبها، تخطفني على مرأى من الناس، أو من فراشي وتهرب بي إلى عالم من القاعات المضاءة أو المظلمة. قاعات مكتظة بما يشبه المحاكمات الخطيرة والتي لا تريد أن تأخذ لها قسطاً، ولو بسيطاً، من الراحة وأخرى هامدة مهجورة وكأنها قد دارت فيها معارك. أصل اليها مسحوباً بالاغلال. عبر ممرات ودهاليز وانفاق تدور على نفسها بسلالم صاعدة أو هابطة محروسة من قبل أشخاص جاهمين شاكي الحراب يمخطون داخل أيديهم ويتبولون على الحيطان. فتصبح، إزاء هذا العالم الجديد، جميع مهاراتي التي كانت مشغولة بعماها الذاتي وقدراتها الخارقة في المناقشات والملاسنة الكلامية ضرباً من السخف واللغو وخيانة النفس. ولكن كل شيء قد فات وما تبقىٰ بين جنبيّ ليس سوىٰ زوبعة من الخجل!

زوجتي امرأة لا أعرفها. وأبواي من صخر. طفلتي وحدها تضع يدها على رأسي وتجلس كالطير البردان في حضني.

(بقيتُ في أمل أن يزول هذا الذي لا يمكن تسميته) فقد كنتُ حتىٰ قبل ثلاثة أيام أعتقد أنه سيزول في أية لحظة، لأنه ببساطة، خطر بلا جذور! شيء مثل الحلم، لم يكن كابوساً، بل مجرد حلم ناءٍ ومضطرب وفطري. من الممكن أن يكون قد ولد معي إلا أن أعراضه لم تظهر طيلة عمري البالغ الآن أربعين عاماً إلا في هذه الأيام: حر ودخان وغرف بنوافذ صغيرة. . خمر رديء وأغانٍ مكررة! مناكدة في العمل ومناكدة في البيت ومناكدة مع النفس، والانسان لا يمتلك حكمة الطير إذا سقط الجليد! وهكذا كانت المسألة وما زالت تبدو لي: مجرد حلم سأصحو منه غداً أو بعد غدٍ، وربما الآن أو في اللحظة التالية. أما وأنه لا يريد أن يتركني، حينها أيقنتُ أن له جذوره. لكن ليست بالجذور البعيدة كما يتصور البعض، فأجدادي، وإن كانت لهم مشاكلهم، إلا أنهم كانوا يلجأون، في بحر اسبوع من الزمان إلى حسمها بالقتال

المباشر، وهذا أفضل: قاتل أو مقتول».

تحرك الطبيب في مقعده، وتثاءب. فكان عليّ أن أسرع، أختصر وأترك أفكاراً عديدة قد تشتت، في ذهنه، الحالة التي أناضل في تجسيدها لديه.

«روحي تهوى الأشجار والأنهار والبارات المفتوحة، مع صديق يحكي لك فتضحك، وتحكي له فيبكي، وقد خشبني الجلوس في البيت، فعمدت إلى شراء نظارة داكنة. أنا أكره الألوان الداكنة، لكن ماذا بيدي؟ فقد توصلتُ، بعد مناقشات مستفيضة مع نفسي إلى أن التجوال في الشوارع والتسكع على الجسور وداخل الانفاق، والاتكاء على حائط ما ومراقبة الناس وهي تركض بأحمالها، أو وهي تتشاجر بالمدى والحجارة أو وهي تسرق مطمئنة وشامخة إلى عواقب فعلها وإن كان ذلك يجري من خلال نظارة داكنة، لكنه، على أية حال، أجدى بكثير من مجرد الجلوس داخل البيت وتسليم روحي للمناكدة وخيالات القاعات بأصدائها وحكامها وحراسها التي تداهمني عند النوم! لا سيما وأن الانسان الذكي يعرف أنه لا يملك أكثر من روحٍ واحدة، مهما كانت جلادتها فهي مهيأة للاصابة، في أية لحظة، بالشيخوخة أو القنوط».

كان الطبيب مصغياً، وقد جعلته بعض جملي لعلها الأخيرة منها بالذات يتأرجح بمقعده الهزاز، يستنشق دخان غليونه المعطر ويبتسم.

مما شجعني على الاستمرار بالحديث ناسياً أن المزيد منه قد يُفسد كل شيء! «قبل أن يحين موعد مقابلتي وإياك، وكعادتي في هذه الأيام، فقد درتُ في السوق طويلاً. حدقت، بكل فضولي، في كل الأشياء، توقفتُ عند اكشاك الجبن والصحف والبهارات، وعند مداخل البارات والسينمات والنوادي الليلية ومجمعات الدجاج. مررت بالمسلخ العام، ثمة أكوام من الأمعاء لم تفرغ محتوياتها بعد، مطروحة للبيع على الوحول قبالة الحوانيت الضاجة بمكائن التقطيع واللغط والذباب. لطالما أثارتني خمرتنا الوطنية بمزتها: الجاجيك المثوّم. وقد سمحتُ لنفسي بأن أتناول ثلاثة أقداح منها. وأعتقد أن عملاً صغيراً ومسلياً مثل هذا لن يغضبك! لم يعجبني منظر الدجاج في أقفاص الجريد الضيقة وهو يدوس، بهمة عجيبة، على بعضه ويتواطأ ويقأقيء ويقفز، البعض منه، فارداً جناحيه مثل من يتمثل الطيران أو الرقص في فضاءات لا وجود لها.

نظرتُ إلى ساعتي فوجدت أن موعدي معك قد اقترب، فتركتُ كل شيء وحضرتُ».

وشاهدتُ الطبيب ينتر يده بوجهي مثل من يصيح: «اخرس!»

ولعله كان قد قالها فعلاً دون أن أسمعها، إذ كان صوتي، في المقطع الأخير «على ما يبدو، عالياً.

إذن، لقد وقع ما كنتُ أجهله. لقد خربت، وإلى الأبد، بمهاراتي الكلامية المختصة بعرض المظالم والرؤى الكابوسية دون غيرها، الألفة التي بدأت أكسبها، في الأخير، مع طبيبي! لكن وبالرغم من هذا كانت ثمة أمور أخرى عديدة قد بدأت تنتظم في ذاكرتي على شكل رؤى ومشاهد، حقيقية أو حلمية لعلها تفوق في أهميتها التشخيصية لحالتي، كل ما سبق وذكرته.

وتلبستني، من جديد، حمى حالة المهارة الكلامية، وحين شرعتُ بسردها، فجأة دخلت السكرتيرة واقتادتني بوداعة سكرتيرات الرجال المهمّين. ولم أمانع.

- الطبيب يوصيك أن تأخذ تمارين في الضحك والابتسام. لقد احتفظ بنظاراتك كشاهد إثبات على أنك قد ساهمت بارتدائها في تردي حالتك المعنوية. ثم إنه يقول إنك تبالغ في مسألة القاعات هذه.. ابتسم يا أخي.

قالتها بلهجة التوبيخ، وتابعت، وقد بدت تفقد وداعتها:

«يا إلهي، أي نوع من البشر أنت؟ كنتُ أستمع إلى صراخك وأنتَ تتحدث عن قاعاتك الموهومة، لقد أرعبتنا!».

وكانت قد فتحت الباب لخروجي. ولمحتُ يدها ترتعش على مقبض الباب، ارتعاشة يديَّ ذاتهما، وقد كست وجهها علامات من يشرع بالصراخ.

بغداد

مراثي الزمن العابر

محمد بدوي

فضاء

القراءاتُ اشتباهُ يفـزّع في الطمي صـوتَ البنـاتِ اللواتي يجئنَ مـع الفجر سيلاً بَهياً تصيرُ المضـايقُ أفقاً إذا الناسُ مرّوا خِفافاً خِفـافاً فَكـوني وُضـوحَ الحقـولِ وذِمّي اشتبـاهَ الغصونِ ورجّي مياهَ السكونِ العميقِ فـإن الجرارَ القـديماتِ حـاجاتُ من سَـافـروا في السّرى مثقلين بمـوتِ النجومْ.

جَامحٌ وهْجُ هذي المرايا ـ زوايـا الدخولِ ونَـامَ نخيلُ الـربيعِ الـذي حاصرته العواصفْ.

إنِ الليـلُ كـانَ جميلاً سنـدْحـوه صُبْحـاً قبيحـاً فـإن الشمـوسَ شَميمُ رخيمٌ وكلُ الليالي تتاجرُ في القلب.

في اللحـظاتِ الجميـلاتِ ينمــو الوسيمُ النسيمُ ـ لو أذى بالاغنياتْ.

وكـلُ الملوكِ يجيئـونَ من أرضِ شوْكٍ يماثلُ ظلَّ المديح دِمَاهم تَنِثُّ ازْرقـاقَ السماءِ وعبقُ عجينِ الكفـورِ ينادي الشوَاديفَ كانتْ حقولُ البـلادِ تخبُّ بثـوبِ الخَـراجِ وتغفـو وتغفـو وثمــة مَنْ ينْحَـرونَ الخِـرافَ لـوثنِ الهديلِ الظليلِ.

كِـلاَنَا مُنيخٌ جمالَ الهُـدوءِ وكلتا السَمـاءين فتحٌ ومنـحٌ لكـل الـذين استطاب لأسنانهم لحم هـذي البلادِ فهل راوغتنا السماءُ التي زانها صوتُ هذي النفوس المليئاتِ نحلاً وعسلاً شهياً مُبَاحاً لمن يشتهون.

وهــل حلْمنـا سـاحـةٌ لانتحـارِ اليمامات هذي التي ساكنتنـا طويـلاً طـويـلاً وجـاءت نبـالُ الـذين انتموْا للضجيجِ فكفّتْ عن الأفقِ شـوقَ الفضاء.

دِمَاءُ وصايا الحقولِ البخيلةِ هذي التي طينُها مِنْ وجوه الذين يروْن فوق الـزنودِ النحيلةِ نخـلاً وعِنبـاً ليُعْصَـرَ خمـراً يُضـوىء أقــداحَ مَنْ لحمُهم سمهري طَريٌ شبيه بألْقِ الربيع.

بعيـدٌ هـو الأفقُ يبـدو حُقَيْـلاً مِن

الوهج والبرق حينَ ينامُ الصغارُ عراةً
من الومضِ أشياؤهم غـادرتْ يومهم
فاستشاطوا طيوراً يجاذبُ منها الجناحُ
حديدَ القفص.

اعـذرونـا إذا عكـرَ الصـوتُ منـا
خَضار الليالي فليس الفضاءُ الفسيحُ
وليسَ البهاءُ الجريحُ وليس الذي كانَ
حلماً سيُطْوى مـع الليلِ سـاحـاتُ
حلمِ الضِعـاف النّحاف ستغــدو
عبـاءات دمٍ ثقيـلٍ سخينٍ يغـطى
الخواصَر ـ هذي المدائن.

أُرْجَوَانُ دمي لا يغطى الحـدائقَ
لكنّـه ينتمي للضجيج ويسـرفُ في
عشقه الفذِّ للرعدِ في نهدِ بنتٍ تجيء
في ثوبها الشيّتِ موعدَ حبٍّ غريرْ.

الخروج

البداياتُ عادةً فاتنهْ
والمرايا تشابهُ ظلَّ الغريبْ
والغصونُ الأماني تظلّل قلبي
قلتُ أبحثُ عن ساحةٍ ترتديني
نامَ قلبي بفرسنِ الوميض الدفيء
والوضوح زهورٌ تنثّ الضجيجْ
صاحتْ الأرضُ دربُك ظلٌّ وظلٌّ
وصَاحَ البعيدُ المراوغُ أفقُ الأماني
تعالَ اشتجْر بالعصيرِ السخيّ
ترى النهرَ نُهْراً
كبّلته الأغاني
يجاسده السكونُ الصفيقْ
أمامَك وَرْدٌ سيضحى أنيسَ الشواهدْ
وخلفَك بحرٌ خاطه الليلُ ثوباً
ولكنْ

إلى أين تهربْ؟
كيف تراوغُ في مقلتيك النداءْ
طريقٌ
من النيلِ يبدأْ
طريقٌ بحجمِ امتلاكِ النساءْ
بحجم المقاصل في ليل أهلك
بحجم وعودِ الجميل المضيء
الذي أخطأَ الموعدَ
قلتُ سيفيَ ضَيْفٌ
لا يطيلُ المكوثْ
ونهري الـذي دجّنته النسـاءُ
اللواتي يُجدنَ حديثَ الوصايا
سيغدو الصقيلَ الجميلَ
الذي شاهدَ الأرضَ
لم يَنْحَنِ بل تطاولْ
وقلتُ الترابُ المصابُ بحبِّ الورودِ
التي تبهرُ القادمين
سيهوى ورودي الجميلهْ
وأوْلمتُ للنيلِ
للساحةِ القرمزيه
للفاتنات المصاباتِ بـالعشقِ
والأوسمهْ
وأخبرتهم أنني راحلٌ في هوىً قاحلٍ
أهتدي المواريثْ
ويشفعُ في ساحةِ العشق لي شارةُ
من هديلِ النخيلْ
ومن هسهساتِ الأكاسيا
ومن كبوة الفارس القرمطي

أفق

قسوةٌ هائلهْ...

هـذه التي تـرتـدينـا فنعلمُ أن البداياتِ ليست شموساً ونـوقنُ كيف النهـايـاتُ كـانت رؤوسـاً ـ زهـوراً ستُقْطفُ في لحظةٍ لا تخاتلْ وليستْ نهوداً سياطُ الذين اشتهونا وكنا لحوماً طريهْ.

قسوة قاتله...

تلك التي مرّغتنا بطينٍ شقيٍّ فكان الضبـابُ ارتشافَ المنـايـا وكـان الخرابُ اشتياقَ الصغيراتِ ثم انتفى الفـارقُ المتـوجّـعُ بين السمـاءِ وبين الأصابعْ.

فـاتنـاً كـان لعبُ الصغارِ الـذين استباحوا وصَايا الجدودِ وحملوا ولم يبْكـوا جثمانَ رجـلٍ عجوزٍ وسمـوه سجادةً منمنمةً لاَ قصيدهْ.

نـافرٌ صيفنـا مُتْضٍ سيفه قـاسمـاً بـطن هـذي المـدائنِ هـذا البـابُ التشهّي النضيرُ وهذي قشورُ الجفافِ المعقّدْ.

صوت

سنمضي وئيداً
لأن السلاحفَ لا ترتدي قبّعهْ
لأن عيونَ المحبّين فينا تجيدُ التسوّلْ
سنمضي
ونرقبُ ضوءاً سنعرفه من شذاها
شذاها الذي حيّر العاشقين
وفي كلّ ربوهْ
وفوق تلالِ الصحارى المريرهْ
سنوقفُ ركباً ما به من جلالْ
سنشعلُ تبغاً رخيصاً.
ونوقد ناراً
لعلَّ أفاعي الوجيعةِ تغفو قليلاً
تمدُّ رؤوساً تفحُ المنون

مَنوُنٌ ينامُ بصدرِ الذين احتموا بالوصايا
ارتموا فوقَ أقدامِ مجدِ الجدودْ
ليشكوا لهم قسوةَ الأسئلهْ
ورعبَ البطونْ

امرأة

يعرفُها الليلُ المتوجّسْ
لونُ الجدرانْ
سعلة أعمدةِ الضوءْ
نهر الفخذين افترشا الشارعْ
قالتْ هلْ يسألني الأفقُ عن الطيرِ الشاردْ
أم يَركزُ في سُرّة عمري الليلُ الرمح
تثبُ القطّةُ من عينيها المتعبتين.
تلعقُ أحذيةَ الليل
جَاءَ الشرطيُّ هزيلاً منتصباً
ضَجّ الوقتُ حضوراً.
الضوءُ نداءٌ سِرِّيٌّ يطردُه الوقتْ
والليلُ الذُّبُ يمزّقُ بأظافرهِ المتْعَبَ
والسكيرَ وخشبَ الحانهْ
مَرَّ الشرطيُّ بيمناه على وجهه
ثم تململَ مَوْبوءاً بهزاله
بَصْقَتُهُ اللامعةُ على الأسفلتِ صراخْ
يسألها المخمورُ سؤالاً
قالتْ:
ليلُ القاهرةِ العوْرهْ
وقتٌ للاحسانْ
وقتٌ للنومْ
وقتٌ للقبلاتْ
لمْ أعْرفْ منذ متى
كنا نمضى اليوم معاً
نلعبْ
أو نشحذْ
في الليلِ الباردِ نتقاربْ
لكن نعرى صيفاً
قالَ الشرطيُّ كلاماً ورِعاً
قالتْ شيئاً بشِعاً
والقطّةُ أضحتْ ذئبهْ
عَرّتْ - حانقةً - فخذاً
فوق الركبهْ
في العمقْ
ثمة طعنهْ

أغنية بنت سمراء

يحلو لي أحياناً أن أحلمك بأرضٍ مَا
قاحلةً كلياليّ بدونِك
يحلو لي أن أرسمكَ
خفيفاً كالبُرْءْ
منفيّاً بحدائق يوم أخضرْ
يحلو لي أن أرشقك بجيبِ قميصي
وأساومُ روحي
وقدةَ جسمي
أوتارَ القيثارِ بقلبي
لكن لا أسلمكِ
أمنحك أماني وشواطىءَ خلجاني
وأنادي سفنك أن تمخرَني
بحّاراً يثقله الدمُ والغربهْ
آهٍ..
هل كانَ زمانٌ قبل الآنَ وشاطرتك دمّي
هل كان جبينُك مرفأً تعبي
أوْ لمْ أجعلْ من عينكِ مرآتي
أوْ أوهمتُ الضوءَ بأني سيّدته
أوقفني الوقتُ عَن السيرْ
حاولني الليلُ فأودعتُ بكفك سِرّي
أرفضُ أن أسلمك لهذا التعبِ المزهوّ بنفسه
أرفضُ أن يصبحَ يومك
يومانا
أفقاً للوهم.

تويجه صامتة

هذا وقْتٌ تهوى فيه نجومْ
وتموءُ امرأة
ينهضُ شيخٌ لصلاته
بعد قليل سيفاجئك الفجرُ المتلوّنُ
بزهورٍ خرْساءْ
وتنوحُ بساحاتِ القلب
الفتياتُ الغجرياتُ ويُؤمَر بأغنيةٍ ومسدّسْ
هذا وقتٌ
يرتحلُ الكون بساحتِه المزهوةِ
شعراً أجوفْ
تتنهّد بنتْ
ويموجُ البحرُ بفخذيْ عاشقةٍ
غادرتَ سمَاهَا
هذا وقتٌ تسعِل في شرفته العتمهْ
يحلمُ طفلٌ مشلولٌ بالركضِ وراءَ المترو
وتُعدُّ امرأةٌ متعبةٌ صحفَ اليومِ القادم
وتسوطُ القوّادُ سبيّته
تملأُ أشباحُ الرعبِ
فراسنَ سياسيٍّ مهزومْ
القاهرة

آراء في الشعر العراقي الجديد بعد ١٤ تموز ١٩٥٨

علي عبد الحسين مخيف

يقصد بالشعر الجديد في هذا المقال، الشعر الحر الذي ظهر نهاية الأربعينات مع الشعراء بدر شاكر السياب، نازك الملائكة، وعبد الوهاب البياتي.

لقد اتضح بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ في اطار هذا الشعر وجود ولاءات أدبية ذوات أصول فكرية وسياسية مختلفة ومتباينة، ولكن توحّدتها جبهة متراصة ضد المحافظين أصحاب العمود الذين كشفوا أيضاً عن عدّة ولاءات بدرجة أقل تبلوراً مما هي عليه مع الطائفة الأولى.

كانت التناظرات في بسط الخصائص الفنّيّة للشعر الجديد، ومن قبل شعراء من ولاءين مختلفين، تلك التي اتفق عليها، وشرحها كل من شاذل طاقة وحسين مردان. فالشعر الجديد لديهما شعر يتحرر من عبودية الشطرين، وقيد تحديد عدد التفعيلات في البيت الواحد، والميل إلى وحدة موسيقية تامة في كل القصيدة(١).

وقد عارض حسين مردان الآراء الزاعمة وجود انقطاع للشعر الجديد عن العمودي، وأكد الصلة الوثيقة بينهما: (ان انطلاق شعراء العرب لم يكن استهانة بالشعر الكلاسيكي، والشعر الحديث ـ يقصد الجديد ـ وليد ضرورة تطورية الشعر الحر ـ يقصد الجديد ـ لا يعتبر تمرداً على العروض... استنفاد ما في الكلمة من طاقات، حيث أنها الأساس في الشعر الحديث(٢).

وقد أقره على صورته هذه شعراً عربياً حقيقياً الدكتور مصطفى جواد(٣) ومع ذلك فقد كانت المقاومة له ضارية من لدن المحافظين، فلماذا(٤) إذن فليس الشكل هو السبب، لأنّ ما حدث في إطاره عاديّ ولا يبرر ضراوة المقاومة له، بل إن شاذل طاقة ما كان يهمه أي تمرد شكلي إطلاقاً على العمود، فقد صرح أنه لا يعارض حتى قصيدة النثر بسبب تحررها الشكلي التامّ من شكل العمود، وإنما يعارضها بسبب طبيعة مضامينها(٥).

وعليه، فإن أساس معارضة المحافظين للشعر الجديد هو المضامين التقدّمية الّتي لم يقبلوا بها لأسباب طبقيّة على الأكثر، وهكذا نرى أن المضامين هي أصل التغيرات الشكلية في الشعر، وقد جمعت هذه المضامين بطابعها التقدمي أدباء تقدميين من ولاءات مختلفة خلف الشعر الجديد كما رأينا في جبهة واحدة ضد المحافظين.

ويصح النظر إلى أن المضامين هي التي تفارق بين الشعراء في مواقفهم من شكل جديد في الشعر فيما عمد اليه أدونيس من تصفية ضد شعراء يختلفون معه في طبيعة المضامين التي يجب أن تعتمدها قصيدة النثر، عندما نص على أن هذه القصيدة عبارة عن كل مستقل ذي إطار مغلق، لا تتقدّم الى غاية، أو هدف، وبلا زمانية(٦).

إنّ قضيّة أوّليّة المضامين في الشعر الجديد نبّه لها عبد الوهاب البياتي عندما أكد عام ١٩٥٩، أن الشعر العراقي الحديث، ذو مضامين فرضتها حاجة الشاعر العراقي إلى ارتياد آفاق انسانية أرحب(٧) وكذلك بلند الحيدري في عام ١٩٦٢(٨) وشاذل طاقة في هذا العام نفسه(٩) وعبد الأمير الحصيري(١٠) وهكذا نرى أنّ هناك اتفاقا بين مختلف الولاءات ضمن جبهة الشعر الجديد حول أوّليّة المضامين في التغيير، وبما استدعته من تحرر جزئي، أو كليّ من قيود الشعر العمودي وبذلك خلخل أصحاب الشعر الجديد بكل ألوانه تركيز خصومه على قضية الشكل في محاولاتهم لتغطية حاجات الاستجابة لمتطلبات المرحلة التاريخية التي يمرّ بها الإنسان العربي.

إن تركيز المحافظين على الشكل كان نوعاً من المناورة في السعي لكسب المعركة ضد الشعر الجديد، ذلك لأن الشكل أقرب ايقاعياً للجماهير فهو الأكثر ضماناً بالتالي لكسب هذه المعركة..

أما المعارضة التقدمية المعاصرة مرحلياً للشعر الجديد، فهي معارضة شكلية فحسب، وذلك بسبب عصبيتها للعمود.

وتنطبق في هذه المرحلة على ما عارض به محمد مهدي الجواهري هذا الشعر، فقد أبرز قضيتين، الأولى: عجز الشعر الجديد عن استيعاب مهمات الثورة الاجتماعية، والثانية: خوف أصحاب الشعر الجديد من وعورة العمود(١١).

لكن يمكن القول إنه لم يوفق في هذه المعارضة، وكل ما قاله في

إطارها غير مقبول، إذ ليس الشعر معنياً بالثورة الاجتماعية فحسب أولاً، وليس كل الشعراء الجدد مسؤولين في إطار الوعورة، وإذا ما قُصد بهذه الوعورة الشعراء الجدد الحقيقيون، وهم قلة، فالحجة ضعيفة لأنهم متمكنون في العمود قبل الجديد. أما إذا قصد بهم الشعراء الجدد الضعفاء، أي الضيوف الثقلاء على أيّ حركة شعرية، فالحجّة غير موضوعية، وقد أشَّر هذه الحقيقة كثيرون من المعنيينّ بالشعر الجديد، أو الحديث، كأدونيس الذي أعلن عن وجود فوضى شاملة في الشعر الحديث[١٢] أو حسين مردان الذي دافع عن هذا الشعر، ودعا إلى كشف المحاولات الساذجة في إطاره والتي يتخذها المحافظون على الشعر العمودي قاعدة هجوم ضده[١٣] أو وحقيقة وجود شعراء مدّعين لا يجيدون فيه غير تقليد بعضهم البعض[١٤].

مقال في الدفاع عن الشعر الجديد:

في عام ١٩٦٢ نشر بلند الحيدري مقالاً في الدفاع عن الشعر الجديد ناقش فيه القضايا التالية:

١ ـ العلاقة بين الشعر العمودي، والجديد، إذ نفى وجود ثورة على قواعد العمود، ووصف الشعر الجديد بأنه لم يتعدّ تطوير وتشكيل أسلوب الأداء الشعري، وبنية القصيدة بحيث تتلاءم مع التعبير والمضمون.

٢ ـ العلاقة اللغوية بين الشاعر الجديد والقارىء، حيث يبتعد هذا الشاعر عن الصنعة البديعية، ويقترب من البساطة، والصدق في التعبير، المفردات البسيطة المألوفة غير المعقّدة باعتبارها جزءاً من حركة عامة تشمل القصيدة كلها، ولا بدّ لها أن تجد مكاناً في تركيب جديد للبيت في الشعر، في الحيّز الأكثر توافقاً معها، أي بترك القافية الواحدة المتكلفة، والصنعة البديعية البارزة، والحشو البنائي في القصيدة القديمة حيث تأتي الكلمات الزائدة لتسند استمرار القافية والأضرب وتوازن صدر وعجز البيت، واللذين لم تعد لهما ضرورة في الشعر الجديد. على أن بلند نفى عن هذا الشعر استهداف السهولة الشكلية، والأسلوبية في التعبير، واعتبر من اختاره لهذه الغاية شاعراً رديئاً ليس الشعر الجديد مسؤولاً عنه.

٣ ـ أوليّة المضامين في البحث عن أشكال شعرية جديدة، فالموضوعات في الشعر الجديد مرتبطة بالعصر والبيئة خلاصاً من الموضوعات التقليدية في العمود، مدح، هجاء، غزل، أو مناسبة، وحدث كبير، هذه التغايرات أدت إلى حاجات فنية مرافقة، شحذ المخيلة، تداعي الصور والذكريات ايحاء ورمزاً، وابتعاد عن الوصف والتقرير.

٤ ـ حاجة الشعر الجديد إلى قارىء جديد معاصر يفهم التحوّلات المحدثة المستجيبة لمصالحه.

٥ ـ حاجة الشعر الجديد للتخلّص من آفة الطول الشكلي للقصيدة العمودية.

٦ ـ أهميّة الموسيقى في الشعر الجديد باعتبارها خلفية صورته الشعرية الحديثة، وجزءاً أساسياً فيه، إذ هي تتوافق مع المضمون الانسانيّ ولو أزمه من غضب وفرح وتأمل، بينما تستند القصيدة العمودية موسّيقياً إلى نغم واحد يضمّها من الأول إلى الأخير[١٥].

وقبل أن نستعرض مناقشة بعض الأدباء لمقال بلند الحيدري هذا، نودّ الاشارة إلى بعض ما جاء فيه من محاور مهمّة. فقضية حاجة الشعر الجديد لقارىء جديد معاصر مدرك استثمرت بكثرة من قبل الشعراء الجدد، وركبت لدفع بعض التهم ضد شعرهم، كتهمة الغموض مثلاً.

وقد كتب طراد الكبيسي عن ضرورة ـ الوضوح ـ فيه لأجل ردم الهوّة بينه وبين القارىء: (ليس الغموض طبيعياً في الشعر الحديث كما يذهب البعض)[١٦].

إلاّ أن رشدي العامل واجه دعوة ـ الوضوح ـ بالتهكم: (يطلبون من قصيدة ما نفس ما يريدون من كتاب لتعلّم القراءة)[١٧] وكان نزار عباس قد قال عن ـ الغموض ـ في الشعر الجديد: (إن الغموض ـ ونحن لا نتكلم عن شعوذة الألفاظ ـ جزء حيويّ من عملية الخلق الشعري)[١٨].

أما عن قضيّة آفة الطول الشكليّ للقصيدة العمودية، وحاجة الشعر الجديد للتخلّص منها، فهذه قضيّة فنّيّة تتوقف على إمكانيات الشاعر نفسه، وقد وجدت هذه الآفة في الشعر الجديد كما أوضحت ذلك باسهاب نازك الملائكة[١٩]. وفي رأيها أن هذا الشعر كما هو في واقعه الموضوعي قد عانى من تدفقية مخلّة أدّت إلى طول العبارة الشعرية طولاً فادحاً كما هو الشأن في بعض مقاطع ـ حفار القبور ـ لبدر شاكر السياب، أو ـ الظلال الباهتة ـ لعبد الوهاب البياتي[٢٠] وقد نوقش مقال بلند الحيدري من قبل حسين مردان، ورشدي العامل، ومحمد صالح بحر العلوم، وبديع عمر نظمي، ودكتور علي جواد الطاهر، ومحمود الريفي[٢١].

أكد حسين مردان في هذه المناقشة على قضية تطوّر ـ الشعر الجديد ـ من ـ الشعر العمودي ـ. أما محمد صالح بحر العلوم، فقد اعترض على تحديد زمنية «الشعر الجديد» بالحرب العالمية الثانية وأكد أنه يرجع إلى أيام أمين الريحاني وشعره المنثور، فعارضه محمد الريفي

بـأن ذلك كـان نثراً مـركزاً، وليس نثـراً، فيما رأى حسـين مـردان ضرورة عدم تحديد المـدى التاريخي لـ «الشعـر الجديـد» لأنه جـاء نتيجة نمو متكامل عبر تراكمات كثيرة، ونعتقد نحن أن حسير أدرك عدم أهمية هذا التحديد فعلاً مـا دام يصبّ في إطار سعي شخصي عديم الجدوى للروّاد في أن يصيبوا من ورائه مجداً وهمياً، ولا بدّ أنه اكتشف أيضاً أن التنافس حول الزيادة يشكل عبئاً ثقيلاً يجثم عـلى صدره باعتبـاره غير معني بهـا، ولأنها ـ أي الزيـادة ـ تشكل خـطراً خصوصياً على حسين مردان بالذات باعتباره رائداً في إطار التجديد الصارخ في المضامين والموضوعات الشعـرية الجـديدة، عـلى النحو البـودليري مثـلاً، وغير ذلـك فيما استحـدثه حسـين من جديـد في القصيدة الحديثة.

واعترض محمد صالح بحر العلوم على تسمية مصطلح «الشعـر الحـديث» واقتـرح «الشعـر الحـر» وحجتّـه أن «الحـديث» يعني «العصري» مما يسبب التباساً دلالياً لما ينشر من «العمود الحديث» في مضامينه، وكـان رأي رشدي العـامل في هـذه النقطة أن أصحـاب «قصيدة النثر» يطلقون على لونهم هذا مصطلح «الشعر الحديث» في إطـار حركـة «الحداثـة» التي هي الجديـد شكلاً، ومضمـونـاً في آن واحد. أما العصريّ، فهو الزمن الجديد.

لقد أراد بحر العلوم أن تصير التسميات كما يلي:

١ ـ الشعر العمودي (الكلاسيكي)
٢ ـ الشعر الحرّ (شعر الروّاد)
٣ ـ الشعـر الحديث (كـل شعر عمـودي حـديث المضامين)[٢٢].

ويتضـح حينئـذ أنـه قصـد تخليص شعـره من تسميـة «الشعــر العمودي» ولوازمها المزعجـة، القديم، الكـلاسيكي، ويبدو أنـه لم يفرق علمياً بين «الشعر العربي الحر» و «الشعر الأوروبي الحر» عـلى النحو الذي شرحه شاذل طاقة لأنه أضاف أن: (الشعر الحرّ معروف في أوروبا والغرب منذ زمن)[٢٣] وفيما يتعلّق بالشعر والسياسة، فقد ربط بديع عمر نظمي أهمية «الشعر الجديد» بالمعركـة الشعبيّة[٢٤]. ويمكن فهم هـذا الربط في شكله الأصيـل بما أبـداه حولـه رشـدي العامل من ضرورة عدم الالزام في هذا الشأن: (هل ينبغي أن نتوجّه إلى الشعراء بطلب الحديث عن موضوعات معينة؟)[٢٥].

واتهم رشدي هذا التوجّه بالمغالاة، والتسبّب في وأد مسيرة بعض الشعـراء، ورأى أنه حتى الـطموح السيـاسي الأممي عنـد الشـاعـر العـراقي قد تصـدّع بالتنـاول السريـع والسـطحيّ للمـوضوعـات الأممية[٢٦].

ثم ردّ حسين مردان دعوة بحر العلوم بضرورة البحث عن بحور جديدة بعيـداً عن بحور «الخليـل» بأن مـوسيقى «الشعـر الحـديث» المتميّزة عن موسيقى «الشعر القديم» لا تستوجب توريط «الخليل» في الموضوع[٢٧]. وبينما أكد الدكتور عـلي جواد الـطاهر عـلى عروبـة وحدة القافية، فقد أشار بحر العلوم إلى أن القافية الواحدة شـرقيّة أيضاً وليست عربية فحسب[٢٨].

ويلاحظ بالطبع أن هؤلاء الأدباء لم يناقشوا مقال بلنـد الحيدري على نحو واسع وافٍ استناداً إلى الصورة التي نقلتها جريدة «صوت الأحرار» حيث يحتمل الاختصار الصحفي.

وكانت مناقشة أخرى قد أثيرت منذ ١٧/٩/١٩٦١ حول «الشعر الجديد» عـلى ثقافيـة جريـدة «صوت الأحـرار» بسبب رسالـة بعثها المواطن حيدر السوادي، ويتساءل فيها عن سبب «الغموض» الذي يجعل الشعر مغلقاً على فهمـة[٢٩].

والحقيقة أن حيدر السوادي أضاف أن عامّة الشعب لا تفهم هذا الشعـر، وأنَّ على شعـرائه ألاّ ينشـروه في صحيفة، أو كتـاب، بل يكتفوا بتداوله بينهم.

وعلى الفور انبرى عدد من الشعراء يردّون عـلى حيدر السـوادي وكان أولهم سعدي يوسف الذي أجاب بما يلي:

١ ـ أن كثيراً من «الشعر الجديد» وبعض كتابات أصحابه لا تفهمها العامة ذات الذوق العموديّ.

٢ ـ إن «الشعر الجديد» شكل جديد عمره قصير (١٤ سنة). فما زال يبحث عن هويته إذا قيس بالشعر العمودي.

٣ ـ إن عدم ظهور شاعر جديد كبير لا يعني فشل «الشعر الجديد» في تناول جانب من جوانب الحياة.

٤ ـ الاتفاق على وجود شعراء يمكن تنـاول القصائـد بينهم دون داع لنشرها في صحف أو كتب.

٥ ـ ميّز وجود شعراء تقدميّين يبحثـون عن أشكال شعـرية فنّية فعّالة[٣١].

وتعني هذه الأجوبة عدم إقرار الاتهامات ضد «الشعـر الجديـد» لكن بعض الأدباء ردّ على سعدي متهماً اياه بالانهزامية، والقصور في الدفاع عن الشكل الشعري الجديد[٣١]. وعـارض طراد الكبيسي دعوة سعدي يوسف في البحث عن أشكال تعبيرية جـديدة خـارج «الشعر الجديد»[٣٢] والواقع أنَّ سعدي لم يدع لمثل هذا في ردّه على حيدر السوادي، بل دعا ضمناً إلى البحث عن أشكال شعرية ذات مستوى فنيّ عالٍ، ومثل هذه الدعوة طبيعية في الابداع الفني، ثم إن «الشعر الجديد» شكلياً دون حدود، وقد أدى فعلاً إلى شكل شعري حديث هو «قصيـدة النثر». يقـول بلند الحيـدري: (إن المضامين

الجديدة هي التي أوجدت أشكالاً جديدة، وأن الأدب الحديث يمثل اتجاهاً مفتوحاً)(٣٣).

وكتب حسين العلاق مؤيداً. الشعر الجديد مقراً أن فيه ـ كما هو ينشر ـ خللاً واسعاً بحيث لم يُبْقِ للشعراء الجدد شيئاً، فهو يعاني من:

١ ـ الرتابة.
٢ ـ النثرية.
٣ ـ التقليد.
٤ ـ اللا نظام.
٥ ـ اللا أصالة.
٦ ـ المباشرة.
٧ ـ التجارب المبشرة.
٨ ـ الغموض.
٩ ـ البناء المتهافت.
١٠ ـ الكلمات المحددة.
١١ ـ الجهل بطبيعته.
١٢ ـ أزمة ثقافة الشاعر، والناقد والقارىء(٣٤).

وهذه أسباب سبق أن رآها حسين مردان في تحديقه(٣٥) وساهم سلمان الجبوري في هذه المناقشة بالقاء وزر أزمة الشعر الجديد على الشعراء الجدد الذاتيين الفرديين المبتعدين عن خطّ الجمهور بسبب الركض وراء ساق، أو شفة أو صدر(٣٦). ثم رأى أن لا علاقة لأزمة «الشعر الجديد» بعدم غناه بكامل طاقات البحور العروضية باعتبار تلاشي بعض هذه البحور نظراً لجفاف موسيقاها وثقلها، وأكّد أن ما يوصف بالبساطة في «الشعر الجديد» يغرق في مهاوي النثر الصحفيّ(٣٧).

وفيما يتعلق بجفاف موسيقى بعض البحور العروضية كسبب من أسباب أزمة «الشعر الجديد» حيث تصطدم بايقاعيتها الرتيبة بإيقاع العصر السريع، وهذا ما أشره يوسف الصائغ في بحثه الأكاديميّ الأول، من أن سرعة وتائر حركة العصر: (أثرت في حياة الفرد مما خلق تناقضاً بين رتابة القوالب القديمة، وسكونها النسبيّ، وبين حركة الحياة)(٣٨) فنحن نرى أن هذا رصد غير دقيق لمفهوم حركة العصر الراهنة، لأن تميّز هذا العصر بالسرعة ليس قانوناً شاملاً إطلاقياً بحيث يجب إسقاطه قالباً جاهزاً على جملة الحياة الانسانية، إذ على الاقل ينبغي التنبّه إلى وجود فرق بين الآلات السريعة باعتبار خصائص سرعتها، والانسان كوجود له خصائص حركية معيّنة لا يمكن تغييرها، فإذا أجبرته الآلات على أن يكون سريعاً، فليس مؤكّداً أن يكون تبعياً تبعيّة مطلقة للآلات في هذا الشأن، كما يجب الإقرار بحقيقة وجود حياة إنسانية رتيبة في كلّ مكان في الزمان، بل وفي قلب الحضارات السريعة، وتحتاج هذه الحياة الرتيبة إلى أن تعبر عن رؤيتها إلى هذا العالم. إن قانون السرعة في الحياة المعاصرة قانون عام فحسب، ولا يجب فهمه حرفياً.

لقد ردّ طراد الكبيسي على سلمان الجبوري رافضاً رأيه في سلبيّة «الشعر الذاتي» ووصف الغزل بأنه حقوق مشروعة للشعراء: (ولم ينكر القرّاء علينا حق التغنيّ بحب، أو بعيون، أو بشفة الفتاة التي تهوى لأن هذا من حقوقنا المشروعة!)(٣٩).

واشترك كاظم نعمة التميمي في المناقشة، فقرر حقيقة أن القراء المتذوقين قليلون، وعددهم هو عدد توزيع أنجح صحيفة أدبية، واقترح مشروعاً لقياس هذا الذوق لكي يأخذ الأدباء بمقياس واضح يواصلون عبره مسيرتهم الأدبية(٤٠) وهذا رأي غير سليم، إذا لا احصائيات ومشاريع ميدانية في الإبداع.

ويمكن اعتبار رأي كاظم سعد الدين القاضي بضرورة إقامة علاقة جدليّة بين الشعر عموماً، وقوى الانتاج كدواء شاف لازمة «الشعر الجديد» في الوضوح، وعدمه، رأياً مثالياً، إذ كيف يربط الشاعر شعره بتطور قوى الانتاج، أو كما ينصّ بضرورة عدم تطور الشعر خارج هذه القوى؟(٤١) وقد اقترحت لميعة عباس عمارة في إطار هذه المناقشة القياس على الشعراء الجدد المبدعين المشهود لهم فحسب، وليس كل من ادّعى الشعر، والمقصود بالمبدعين، هم المؤهلون ثقافياً بأصالة، أي الذين يحيطون بتراث شعبهم، وهذا اقتراح منهجيّ سليم(٤٢). وكتب حيدر السوادي من جديد متهماً المتناقشين بالابتعاد عن الموضوع الأساسي المطروح للمناقشة، وهاجم ردّ كاظم نعمة التميمي، وأبدى عدم اقتناعته برد سعدي يوسف أيضاً(٤٣).

وقد اعترفت جريدة «صوت الأحرار» بتقصيرها في إدارة هذه المناقشة، وانتقدت سلبية عدد من الكتاب سواء الذين لم يساهموا في المناقشة، أو الذين أبدوا تسرّعاً في النقاش(٤٤).

وفي ختام هذا الاستعراض لآراء الكتاب والأدباء العراقيين في «الشعر الجديد بعد ١٤ تموز ١٩٥٨» نستطيع القول إنّ بعضهم كان قليل الخبرة بحقيقة هذا الشعر، منطلقاته وجدله مع التراث، الأمر الذي أدّى بهم إلى إبداء آراء غير سليمة، أو متطرّفة أثارت الالتباس حول أصالة المبادىء وصحتها التي انطلق منها هذا البعض في مواقفه الأدبية.

ودلّت بعض الكتابات على قصور النظرة إلى «الشعر الجديد» على مصلحة ثابتة. ذاتية، يتضح هذا لدى بعض العموديين المعروفين، كما ودلت هذه الكتابات لدى آخرين على وجود جبهة غير معلنة بين شعراء من ولاءات مختلفة تتبنى «الشعر الجديد»، باعتباره ظاهرة

شعريّة تقدميّة، وفي المقابل وجدت جبهة مضادة تتبنى «الشعر العمودي» جمع أصحابها مختلفي الولاءات ثباتُهم على هذا الشعر. فيما جمع التوجّه المحافظ، وكراهية المضامين الجديدة جمهرة متميّزة في جبهة العمود، هي جمهرة الأدباء المحافظين الذين كان همهم الدائم تحويل الأنظار من معركة حول مضامين جديدة تستوجب أشكالاً شعرية جديدة، إلى معركة أشكال فقط ليسهل طعن «الشعر الجديد».

وقد تبلور رأي عام خلاصته أن «الشعر الجديد» شكل شعري أصيل استوجبته سعة الحاجة إلى التعبير عن مضامين انسانية جديدة، وأنه تطور إلى شكل أكثر حداثة للسبب نفسه باتجاه «قصيدة النثر».

ولا شك أن الافتقار لمقاييس دقيقة، وتقاليد أدبية راسخة جعل من الصعوبة أن تتحوّل هذه المناقشات إلى اكتشاف جوهريّ مهمّ يؤدي إلى تحوّلات كبيرة في التأسيس النظري للشعر الجديد. ولعلّ هذا هو ما يبرز أهمية دعوة لميعة عباس عمارة إلى ضرورات الفرز النقدي للشعر الحقيقي من عدمه. هذه قضايا بارزة رأينا الاشارة اليها في هذا الختام، وقد مرّت بالقارىء قضايا أخرى مهمة كثيرة تجعل، كما نظنّ، صورة «الشعر الجديد» ومشكلاته أوضح في الذهن في هذه الفترة المقصودة بهذا الفصل.

(١) أ - جريدة الجمهور ٢٧٤ في ٢٩/٤/٩٦٢، لقاء عابر مع شاذل طاقة / عاطف.
ب - جريدة صوت الأحرار ١٢٤٠ في ٢٠/١١/٩٦٢، امسية شعرية / ج.
(٢) جريدة صوت الأحرار، المصدر أعلاه.
(٣) مجلة الرياض ١٧ في ٢٣/١٢/٩٦١، آراء جريئة للعلامة الدكتور مصطفى جواد ص ٤ - ٥، تنظر ص ٥.
(٤) كان أكثر آراء المحافظين قد قام على أساس عام هو قصور أصحاب هذا الشعر ثقافياً ازاء ديوان الشعر العمودي، ضعفاء في ادراك أسرار تعبيره، وبيانه، ووزنه العام:
١ - مجلة التضامن ٤ في ٩٦١، ص ٣٦ - ٣٨، الدكتور عبد الرزاق محيي الدين والشعر الحر، ص ٣٨، والعدد السابق ٣، ص ٤١ - ٤٢، قرأت العدد الماضي، نفس المؤلف ينقد قصائد لبدر شاكر السياب، وشاذل طاقة، وخالد علي مصطفى.
٢ - مجلة الرياض ١٣ في ٢٥/١١/٩٦١، ص ٧، ١٨، الشاعر حافظ جميل يعلن رأيه في شعر لبنان والعراق بصراحة.
٣ - المصدر السابق ١٧ في ٢٣/١٢/٩٦١، ص ٤ - ٦، آراء جريئة للعلامة الدكتور مصطفى جواد.
٤ - المصدر السابق، ص ١٠ - ١١، الأستاذ فؤاد عباس يفند أسطورة الشعر الحر.
٥ - المصدر السابق ١٨ في ٣٠/١٢/٩٦١، ص ١٨ - ١٩، الرياض تخرج العلامة الدكتور البصير من عزلته، الشعر الحرّ جناية على الشعر والأدب.
٦ - المصدر السابق، ص ١٠، الشعر الحر، وخطره على الأدب العربي/ عبد القادر الناصري.
ملاحظة: في قضية صعوبة استيعاب أسرار التعبير والبيان العمودي في الشعر نجد محمد مهدي الجواهري يعتمدها في معارضته للشعر الحديث.
تنظر: جريدة الرأي العام ٩٣ في ١٩/١٢/٩٥٩، حديث الجواهري للأخبار اللبنانية / نسيب نمر.
(٥) جريدة الجمهور ٢٧٤، المصدر السابق.
(٦) جريدة صوت الأحرار ٦١١ في ٢٣/١/٩٦١، أدونيس وثورة الشعر الحديث.
(٧) جريدة اتحاد الشعب ٣٣ في ٥/٣/٩٥٩، حديث مع الشاعر عبد الوهاب البياتي/ ع. س.
(٨) جريدة صوت الأحرار ١٢٤٠ في ٢٠/١١/٩٦٢، هؤلاء سيطرحون قضايا الأدب/ محمد سعيد الصكار.
(٩) جريدة الجمهور، المصدر اعلاه.
(١٠) «أزهار الدماء» - عبد الأمير الحصيري، مطبعة الآداب - النجف، ص ٦، مقدمة.
(١١) جريدة الرأي العام ٩٣ في ١٩/٢/٩٥٩، حديث الجواهري للأخبار اللبنانية/ نسيب نمر.
(١٢) جريدة صوت الأحرار ٦١١، المصدر اعلاه.
(١٣) جريدة البلاد ٦٠٨٩ في ٣٠/٤/٩٦١، تحديق في شعرنا الحديث/ حسين مردان.
(١٤) جريدة صوت الأحرار ١٢٤٠، المصدر أعلاه.
(١٥) مجلة الأديب العراقي ١ في كانون ثان، شباط ١٩٦٢، ص ٣٩ - ٥١، خواطر في الشعر العراقي الحديث/ بلند الحيدري.
(١٦) جريدة صوت الاحرار ٩٠٢ في ٢/١٠/٩٦١، القضية قضية وضوح، /طراد الكبيسي.
(١٧) جريدة المستقبل ٦٥٧ في ٢٤/١/٩٦٣، صوب أصوات جديدة في الشعر/ رشدي العامل.
(١٨) جريدة صوت الاحرار ١٠٩٤ في ٢٩/٥/٩٦٢، قصيدة سعدي يوسف/ نزار عباس.
(١٩) «قضايا الشعر المعاصر» - نازك الملائكة، ط ٣/٩٦٧ ص ٢٨ - ٣٣.
(٢٠) المصدر السابق.
(٢١) جريدة صوت الأحرار ١٠٣١ في ٥/٣/١٩٦٢، مناقشة حول الشعر العراقي الحديث/ حول كلمة بلند الحيدري.
(٢٢) المصدر السابق.
(٢٣) المصدر السابق.
(٢٤) المصدر السابق.
(٢٥) جريدة المستقبل ٦٥٩ في ٢٦/١/٩٦٣، العمل الشعري التجربة الشعرية / رشدي العامل.
(٢٦) المصدر السابق.
(٢٧) جريدة صوت الأحرار ١٠٣١ في ٥/٣/١٩٦٢، مناقشة حول الشعر العراقي الحديث/ حول كلمة بلند الحيدري.
(٢٨) المصدر السابق.
(٢٩) المصدر السابق ٧٩٩ في ١٧/٩/٩٦١، رسالتان لا للشعب عامة/ حيدر السوادي.
(٣٠) المصدر السابق / أدب صاعد للشعب عامة/ـ سعدي يوسف
(٣١) المصدر السابق ٨٠٥ في ٢٤/٩/٩٦١، أدب للشعب وحدة، ومقال الفريد سمعان.
(٣٢) المصدر السابق ٩٠٢ في ٢/١٠/٩٦١، القضية قضية وضوح!! / طراد الكبيسي.
(٣٣) المصدر السابق ١٠٣١ في ٥/٣/١٩٦٢، مناقشة حول الشعر العراقي الحديث، حول كلمة بلند الحيدري.
(٣٤) المصدر السابق ٩٠٨ في ٩/١٠/٩٦١، انها مسؤولية الشاعر أولاً/ حسين العلاق.
(٣٥) جريدة البلاد ٦٠٨٩ في ٣٠/٤/٩٦١، تحديق في شعرنا الحديث/ حسين مردان.
(٣٦) جريدة صوت الأحرار ٩١٤ في ١٦/١٠/٩٦١، نعم هو الشاعر/ سلمان الجبوري.
(٣٧) المصدر السابق.
(٣٨) «الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى ١٩٥٨» - يوسف الصائغ - مطبعة الأديب، ١٩٧٨، ص ١٢٨، الوزن.
(٣٩) جريدة صوت الأحرار ٩٢٦ في ٣٠/١٠/٩٦١، الوضوح والاصالة أيضاً!/ طراد الكبيسي.
(٤٠) المصدر السابق ٩٣٢ في ٦/١١/٩٦١، كلا.. القارىء اولاً/ كاظم نعمة التميمي.
(٤١) المصدر السابق ٩٣٨ في ١٣/١١/٩٦١، الشعر الحر ومسائل أخرى/ كاظم سعد الدين.
(٤٢) المصدر السابق ٩٤٤ في ٢٠/١١/٩٦١، مشكلة شاعر وقارىء/ لميعة عباس عمارة.
(٤٣) المصدر السابق ٩٥٠ في ٢٧ /١١/٩٦١، الموسيقى والوضوح ليس غير/ حيدر السوادي.
(٤٤) المصدر السابق ٩٦١ في ١١/١٢/٩٦١، حول بعض قضايا الشعر الحر/ أسرة التحرير.

نجاة العدواني

قصيدتان:

■ هبا.

أكره الشمس تأتي من نافذةٍ سفلى،
وأكره انحداراً وراء ابتسامةٍ زائفة،
وانحناءة رأسٍ لغير المقصلة . .
تنحلّ الروح داخل دويّ حنجرة،
وامرأة سنديانة يسربلها الضبابُ
فتزهر صَحْواً . .
إلى بحر زنبقيّ تعبر الغسقَ السفينةُ ـ
(عادت ديدون) ـ صُورُ تفتّحَتْ فاتحةً
نوافذها، الرّفض عاد مكلّلاً، والأساطير
بِصَيْدا تزهو،
نَفَخَتْنا الأكاذيب فحلَّقْنَا مناطيد هواء،
وفي بيروت إخوتنا يحوكون من جلودهم
ثوباً يتّسع لأحزان الدّنيا ـ (مثلما اتّسع
جلْد الثور لحلْم ديدون) ـ
خرائبنا تكاثَرَتْ. قرطاج هباء. وبيروت
لوَّحَتْ بالنّار أجنحة الحمام.
لا أبكي الثكالى. اهرعي فيروز فراشةً
ناصعةً،
لبنان مصباح الظّلمات . .
انبثقي من رماد الأجراس والمآذن،
احفري لصمتنا قبراً،
ومن حبال صوتكِ اجدلي مشنقةً
لأعناق أصنامٍ فوق عروشنا . .

□ سيدي بوسعيد ـ تونس
ديسمبر 1984

■ سنا.

عقيقُ ضفائرها الدّيناميت.
حزامها الذهبيّ عندما غمز الشمس
انفجر الزّنبقُ فيه والياقوت.
احمرَّت شفاه العذارى
اشتعل وجه ذلك اليوم . .
زغردي يا أمّها،
إمسكي ياسمين الثوب حتّى
تتوارى في هودجها
عروس الجنوب.
سمراء، لمقدمها انكسر صلصال
الرّجال،
عذراء تتعرّى لمولد طفل لم يأت البراق
به،
شَفَقٌ شَقَّ القصيدة،
ثوبٌ طرّزَتْهُ نساء صيد بالصَّبر
والانتظار . .
نبتَتْ على أطراف وشاحها الأهلّةْ . .
سيفٌ يرتعش على الشفتين،
دمٌ تفتّحَتْ براعمه،
طائر الخوف مذبوحٌ بين الأهداب،
انتفض البرق، والضوء صاعقةٌ . .
دقّت ساعتها على صوّان الوقت،
أمام عربتها صهلت أمهارٌ
وطارت فراشات الماء والرّماد
بأجنحة اللّهب.

■ مرسى النسيم ـ تونس
13 - 4 - 1985

قصة قصيرة:

الأعشاب

نعمان مجيد

تلك الرائحة، رائحة الأسيات أو «الأواسي»[1] هي التي كانت تنبعث من ثغور وريقات داكنة، وبالتحديد من جهة الحقل الشمالية إذ تنتصب بعض أعشاب داخل أصص الزهور الفخارية أو البلاستيكية الملونة. إن العشب قد نما وبي رغبة خفية لأن يرى جدي سلمان الوادي ذلك بعينيه، لكن جدي الذي لم تره عيناي يعرف جيداً ما معنى أن يكون العشب نامياً. وهذا العشب الذي أراه الآن قد نما وإخضرت أوراقه حتى أخذت السيقان النحيفة تتسلق جدار الحقل وتتشابك مع خطوط الأسلاك الشائكة التي كانت بمثابة سياج أو سور يحيط بالحقل من كل جانب، ولم تكن المسافة شاسعة أو بعيدة تلك التي تحيط بالأزهار والأصص والغرف والأشجار الصغيرة، لكن جدي الذي لم يعرف ما طول المسافة بين البيت والبستان كان يقطع المسافة بين البيت وآخر نقطة على صهوة جواد ولا يستغرق منه ذلك غير ساعة من الزمن أو أكثر بقليل. يبدأ التجوال اليومي دون أن يصل إلى نقطة أسلاك أو نقطة حدود، يلعب الهواء بوجهه ويحرك عباءته حول كل ما يحيط برأسه، ويفتح منخريه على اتساع يعبّىء صدره بالرائحة التي تملأ رئته، إن العشب قد نما في الحقل وزحفت ذوائبه النحيفة وإمتدت فوق رؤوس الأسلاك المدببة وبدأت تغطّي وجه السياج وراحت تتلوى ثم تستطيل بامتداد متى ما واجه عائقاً تعرج بحافات متعرجة ثم تمضي في سيرها، قد يحركها الهواء أو رقة النسائم فتهتزّ مرتعشة، ولأن الأوراق كانت صغيرة والسيقان لم تزل نحيفة، فإن خشيتي لم تزل كبيرة وتختلج هماً في داخلي أنا مهندس الحقل الزراعي هذا. تذكرني نحافة السيقان بجدّي الذي كثيراً ما امتدّت يداه ليقتلع كل ما يحيط بأشجار النخل من أعشاب ضارّة. ربما كان يقول مع نفسه: هذه أعشاب ينبغي أن ترمى بعيداً. تمدّ يديك، تطاوعك الأعشاب حين تسحبها من وجه الأرض. ترتعش أعشاب الأواسي بمجرد أن تهبّ حركة هواء ضئيلة فتنتشر رائحة ما في أرجاء الفسحة الأرضية المنكشفة للظهيرة المشمسة، وتدفع نافورات الماء رذاذاً متطايراً إلى أعلى. هذا يوم يا جدّي يتحول فيه الحقل كله إلى رائحة، بل إنها تتعدّى متجاوزة أرجاء الحقل مندفعة إلى الزقاق القريب من الحقل. هذا يوم يا جدّي مشحون بالألم والفرح معاً وأظنك لن تعجب: ألم أكن أنا سلمان الصغير من صلب سلمان الوادي؟ فليس غريباً أن يتدفق الرذاذ من الماء منصبّاً في الفراغات ثم سرعان ما يهبط نازلاً فوق سطح الأرض وينحدر منساباً إلى أسفل السيقان النحيفة، ومتجمعاً ثم مستقراً ببطن الأصص فتندفع الرائحة أكثر وتتصاعد، تتسلق أسطح المنازل فتدخل إلى البيوت من الشبابيك أو النوافذ أو الأبواب، ثم ما تلبث أن تتطاير في أجواف الشوارع المزدحمة بالناس والسيارات وتغص الساحات برائحة محبّبة تستنشقها بود صاغر عميق يتيحُ لها أن تدخلُ كل زوايا القلوب دون استئذان. إنهم الآن يشعرون بالنشوة التي تفيض بها الصدور ولم يستطع أحد منهم أن يميز إذا كانت هذه الرائحة هي رائحة قداح أم رائحة بطيخ، أو رائحة أبصال النرجس الجبلي. كان العبق مثل عبق زهرة الرازقي أو أشبه به. زهرة الرازقي التي كنت أقدمها إلى الآنسة أمينة كل صباح. ألم أخبرك يا جدي أنه يوم مشحون بالألم والبهجة معاً حتى أن الرجل الأصلع، الرجل البدين، مدير الحقل قد أصيب بالذهول عندما لطمت تلك الرائحة منخرية؟

أي نوع من الأعشاب هي إذن! أهي أعشاب أفيون أو

الكينا. أو الكافين؟! أنا نفسي لم أكن أتوقع أن تكون لهذه الأعشاب مثل هذه الرائحة. غير أن أفكار الرجل الأصلع مدير الحقل دائماً سُود، وأن تساؤلاته مليئة بالخبث. ربما كنت أشعر بحساسية عالية إزاءه كونه رئيسي الذي يراقبني باستمرار. ربما لأن جدي كان وحده الذي يصول ويجول في البستان ليل نهار، يسرح ويمرح به طولاً وعرضاً، لا أحد غيره فيه، لا أحدَ يبعث في نفسه الخوف، ولم تكن جدتي «أمينة العلوية» تخشى أحداً في قرية «الرجيبة» كلها بل إن الناس هم الذين يتسابقون في طلب ودها ورضاها وينذرون النذور لها ويتبركون بها. لكن الآنسة «أمينة البابلي» مسؤولة غرفة المختبرات في الحقل هي التي جعلت الرجل الأصلع البدين يتمادى في تساؤلاته. كانت تخافه... تخشاه أكثر مما يجب! ربما لأنها لم تكن تتوقع أن يحدث هذا الذي حدث بهذه السرعة العجيبة. العشب قد نما، والرائحة تفوح، ولكنها أحجمت عن أن تصفق راحة يديها من الفرح، إذ ليس بمقدور امرأة مثلها أن تفهم أمراً بهذا التعقيد رغم أنها تحب الصباحات الندية والنهارات المشمسة وخضرة الزرع وتدفق المياه. إن مدير الحقل ضاق ذرعاً بكل شيء، ولم يحتمل صبراً فطلب من «أمينة البابلي» أن تتبعه وتجيء إلى غرفته. ألقت ما كان بيدها وأعادت الدوارق الزجاجية إلى مكانها في الثقوب المنتشرة على اللوح الخشبي أخذتها استغراقة مؤقتة وفكرت إنْ ذهبت إليه فلتذهب بلا رائحة، فاتجهت إلى المغسلة القريبة منها. أدارت رأس الحنفية فانزاح الماء فأخذت تفرك يديها بالماء والصابون، ثم أسقطت دفقات الماء فوق وجهها الأبيض وتناولت المنشفة المعلقة في الشماعة وأخذت تنشف يديها ووجهها. وفكرت قبل أن يجف البلل منها أن الإنسان يحتاج إلى شيء منطقي لكي يبرر أمراً أو يدحض الآراء التي يخمن أنها تدور حوله وتحيط به، ولهذا حاولتْ أن تتخلص من تلك الرائحة قبل أن تطأ قدماها أرضية غرفة المدير، ولم تنس أن تصفع تنورتها ثلاث أو أربع مرات حتى أنها لم تأبه أو تنتبه أن ضربات يدها قد رفعت أذيال تنورتها فانكشفت ركبتاها البضتان متناسقتين، ما بين الفخذ والساق، مسحت شعرها القصير بأطراف أصابعها وأصلحت بلوزتها الزرقاء ثم طرقت باب الغرفة. سمعت صوت المدير يأذن لها بالدخول. لك يا جدي أن تتصور أيّ خوف كان يعتريها في تلك اللحظات، لم أخبرك يا جدي بأنه يوم حاسم ومشحون بالغرابة. أشار لها مدير الحقل أن تغلق الباب خلفها ولم يُشر عليها بالجلوس. ظلت واقفة أمامه دون أن تتفوه بشيء. أين كنت إذن في هذا الوقت؟! كنت أستحضر حكاية اللسع الذي تعرضت له جدتي أمينة يوم كانت تمشي في أرجاء بساتين الرجيبة. صرخت أمينة العلوية حين هاجمتها أسراب النحل والدبابير فوجئت أن كتلة الحشرات المتطايرة تحوطها. لكنها صرخت! ولم تفتح عينيها عن إغماضة قليلة حتى وجدت سلمان الوادي يقف بقربها كما لو أن الأرض قد انشقت وبعثته فجأة من داخلها وأخذ يسحق أسراب النحل القارص بكلتا يديه فيحيلها إلى ذرات مهشمة؛ لكن أمينة البابلي لم تصرخ بل ظلت متسمرة في مكانها حتى نهض الرجل الأصلع واقفاً إزاء المنضدة الحديدية وأطلق صوتاً أجشّ: ماذا تعرفين عن تلك الرائحة. إني تشممتُ رائحة.. ولم تدرك لحظتها أن الرائحة كانت تنبعثُ من أنفاسها المتوترة. لم تجبه. أخذته دهشة مؤقتة وإنتزع جسده من وراء المنضدة واقترب منها إني أشتم رائحة. إني أخشى عليك، قد تكون رائحة أعشاب ضارة وهي أنىٰ لها أن تعرف إن كانت ضارة أو نافعة، كل الذي تعرفه أن لهذه الأعشاب رائحة عبقة محببة وتبعث عطراً زكياً وتمنت لو أن الماء والصابون قد أزالا الرائحة عن يديها.. عن وجهها لو أن الرائحة ابتعدت عن تنورتها أو عن شعرها. لم تجبه بشيء وخرجت إليّ، كنت واقفاً أنتظرها عند باب غرفة المختبرات كان وجهها كئيباً بلا ألق. لم أقل لها لا تجزعي فقد أزفت ساعة الرحيل فلن ترى بعد هذه السويعات هواناً أو ألماً. آثرت أن أكتم ما بداخلي لكن عينيها انشغلتا بزوغان قلق ولم يستقر بصرها بل ظل ملتصقاً بهيكل الرجل البدين الذي ابتدأ جولته الصباحية بين أرجاء الحقل حتى توقف عند الأحواض المخصصة للتجارب النباتية الجديدة. كم أثقلني بمثل هذه الجولات. ربما لاحظ انبثاق الأعشاب عبر الأحواض الزجاجية وأدرك أن العشب قد نما فهو لم يزل يُحني قامته كما لو أنه يتشمم شيئاً ما. ينبغي أن أذهب إليه لا لأوقفه عند حدِه بل لأستعجله أن ينجز كتابة أمر انفكاكي ونقلي إلى حقل آخر. تهرب إذن؟! تنهزم إذن؟! هل كان جدك يوماً إنهزامياً؟ قارن بين قرى الرجيبة وبين مدىٰ الحقل، قرى الرجيبة الرحبة، ومدى الحقل الضيق، ولهذا أحسست ان «أمينة البابلي» تريد مني أن أمكث وقتاً أطول. لم تطلب مني ذلك لكني أدركت بمجرد أن حولت بصرها عن جسد الرجل البدين ولم تعد عابئة بنظراته المتلصصة تريد هي أو أريد أنا أو نريد كلانا أن نمسك بهذه السويعات المتبقية. وهل أنت راحل حقاً؟ نعم يا أمينة. إنها سويعات ثم أجلو عن هذا

المكان. هي سويعات من نوع خاص تشبه تلك السويعات التي تمتد منذ الصباح حتى الظهيرة التي كان جدي سلمان الوادي يعود فيها من «الهندية» إلى قرى الرجيبة. يكفيه أنه رأى بعينيه جدتي أمينة العلوية. كان هذا قبل أن يتزوج منها. هي سويعات دم ينزف، دمي أو دمها.. لذا بقيت إلى جانبها أتطلع إلى ارتعاشة شفتيها وأحدقُ في آخر ابتسامة لها. هذا آخر رنين جرسي يتدفق في أذني ينطلق من نبرات صوتها المرتعب. إنما عن تلك الأعشاب كنا نتحادث، إنما عن تلك الرائحة المنبعثة من الأعشاب كان الحديث بيننا يدور. هي أعشاب الأواسي التي أحدثت في القلب رنيناً كرنين الأجراس ولا يسمع أحد هذا الرنين إلا الذي تنشقَ الرائحة بعمق، مثل أمينة، ومثلي!.

ولكنك لم تخسر حياتك مثل جدك. أعني إنك لم تضع حياتك في كف الموت. إن ملءَ كفي لحظات يا جدي وأريد لها أن ترتاح من هذا العبء. تعرف أني لا أنوي حتى أن ألقي عليها تحية وداع لأبدو غير جزع، إني أتماسك، أبداً في الظاهر فقط. ولكني أريدها أن ترتاح من الصداع الذي أثقل رأسها الصغير، الصداع الذي لم يعد ينفع معه كل حبوب الأسبرين أو البرايستول. أنت إذن لست مثل جدك. ألم تخبرك أمك، يوم دخل الأتراك قرية الرجيبة. كانت السماء ملبدة بالغيوم وفرّت أسراب الدجاج والديكة مذعورة خائفة. أمسك الجندرمة الترك بجدك سلمان وطلبوا منه أن يلتحق بأعمال السخرة. كان النهرُ هائجاً وينذر بالفيضان، وسيقَ الفلاحون عنوة يحملون أكياس التراب ويعملون السداد. رفض جدك أن يسخره رجال الجندرمة وامتنع، لكنهم ربطوا يديه بقوائم الحصان. وأوثقوا رجليه بحبل سميك. إنهالوا بالسوط على جسد الحصان فانتفض راكضاً. أخذ الحصان يجر جسد سلمان الوادي جراً، ويسحلهُ سحلاً على الأرض، ظلَّ يدور به ويدور وكلما شعر الحصان بالتعب والإعياء ساطوه بقوة ليتحرك فيمسح وجه سلمان الأرض، وقدماه تتركان أثراً ترابياً طويلاً وراءهما بينما أخذ الدم يتقطر من كل أجزاء جسده. وفي المساء فكوا وثاقه وتركوه أمام باب الكوخ الطيني فغشي عليه. ألم أقل لك أنت لست مثل جدك! ولكني من صلبه ودمي ينزف دون أن يراه أحد. وهل رأى جدي يوماً رجلاً محكوماً بالإعدام؟ هذه السويعات بل هذه اللحظات تشبه لحظات رجل حكم عليه بالموت شنقاً. وهل رأى جدي أعواد مشانق، أو حبالاً ليست لتكبيل اليدين بقوائم الحصان بل هي حبال لخنق الرقبة، ولهذا طويت بيدي أكوام أزاهيري. غير أن الرجل الأصلع البدين أخذ يمشي ببطء ويخطو على طرفي حذائه لكي لا يحدث صوتاً، لكني أحسست وقع خطاه يقترب دون أن ألتفت إليه فقد توقعت ذلك لأن الآنسة «أمينة البابلي» طلبت مني بحركة من عينيها أن أتنبه إلى ما ورائي أو أتوقف عن التحادث معها. خلسة يتقدم كما لو أنه يوهم نفسه بأنه ضبطنا واقفين معاً حتى اقترب تماماً ومدّ يده وأعطاني أمر نقلي. مشيت متحركاً باتجاه الباب الخارجي للحقل، وقبل أن أنتزع جسدي منه سمعت صوتاً يطرق أذني، صوتاً يناديني، توقفت قليلاً وانتظرت. أعرفه هذا الصوت. لحقت بي أمينة وتوقفت بقربي وألقت نظرات تمسح بها جسدي كله ثم مدت يدها إليَّ. كنت أظن أنها تريد أن تصافحني لكي تودعني.. مددت يدي إليها. تلاصقت يدانا فشعرت بحبات ناعمة صغيرة تنداح من بين أصابعها وتسقط في راحة يدي. أدركت أنها بذور أعشاب الأواسي أو حبات السوسن أو النعناع أو أنها بذور كل الروائح.

بغداد

---

(١) الأواسي: اسم النساء اللواتي يضمدن الجرحى في الحروب الإسلامية.

"وردة للوقت المغربي"

لأحمد المديني

سمير أبو حمدان

لهفي على المغرب وأهله من راوٍ ينفخُ عَضَلَه ويبغي قلْب الطاولة على من حولها. نريد أن نغرِّب إذن. أن نتّجه مغرباً لنلتقي مرةً أخرى بأحد كتّابه القساة، العتاة، المشمّرين دائماً عن سواعدهم لنصرة الحق وزهق الباطل. إنه أحمد المديني في روايته «وردة للوقت المغربي» (*).

قلتُ: لهفي على المغرب وأهله. فالكاتب أحمد المديني (شبهُ اسمه نجده كثيراً بين أصحاب الطرق الصوفية هناك) أرادَها صيحةً مخمورةً في وجه الظُّلاَّم وقساة القلوب والحاكمين الذين أضاعوا ماء الوجه فَطَلسوا وجوههم بالوحل.

وإذ نتكلم على المغرب وأهله أفَلا يحقّ لنا، بينما نهمّ بتفكيك الأفخاخ المنصوبة لنا في هذه الرواية الشقية، أن نسأل: أيُّ مغربٍ سدَّد إليه أحمدُ المديني سهامه؟ أهوَ المغربُ العربيُّ الكبير؟ أم هي الرقعةُ العربية المتراميةُ الأطراف، بخِيَمِها ومضاربها ونوقها وحريمها وأباعرها (جمع بعير) والتي (تتغرَّب) كل يوم عما هو اصيلٌ وجديرٌ وفخم؟

ليكن ما يكون من أمر هذا الكاتبِ المغربيّ الذي يلتذُّ بأن يصفعنا صفعاً، ما دامت القتامة تتوزعُ، بالعدلِ، على صحارينا ووهادنا وجبالنا، سواءً بشقّنا المغربي أو بالآخر المشرقيّ. فكلنا في الهمّ شرقٌ مثلما ردَّد دائماً أميرُ الشعراء أحمد شوقي. وإذا الهمُّ في زمن هذا (الأمير) كان يتوزَّعُ فيما بين القلبِ والعقلِ فانه، تمدَّد أيضاً إلى العضلِ فأحالَ جسومَنا إلى ما يشبه الجثث الملقوحة بغير دفن! هوذا أمرنا يا أحمد المديني. إنه أمرٌ من الصبر. لكنْ ما يهوِّن علينا، ويجب أن يهوِّن عليك، أن ثمة شيئاً سمّوه، تجوُّزاً، الموت، وأملُنا أن يضعَ حدّاً حاسماً ونهائياً لمأساتنا ومأساتك.

* * *

بعد هذا سوف ننعطف قليلاً نحو ما لا يسرّ. نحن وجهاً لوجه مع خطابٍ روائيٍّ خلوٍ من أي إمتاعٍ ومؤانسة. يرفضُ أن يكون حديثَ أنسٍ وسمر، بل يحلو له أن ينشر على الأشياء برقعاً من قتامةٍ وجواً كالحاً بحيث نظنّ، في وهلةٍ أولى، أن الشمسَ انخسفت ولم يعُد يتبدَّى للعيون غير ملامحٍ نَجَفَها التآكلُ والاهتراء. في ظل هذه القتامة أو انخساف الشمس تغدو الأشياءُ على قدرٍ من الاستواء والتوازي. تتخذ حجوماً متوازية. إنه الزمنُ ذو البُعد الواحد يُحيل البشرَ إلى كائناتٍ بدائيةٍ تعمل وَفق قانونٍ سنَّته الطبيعةُ الأولى: زاد يقيم الأود، وتناكح يضاعف النسل وعقليةٍ تضطهدُ العقلَ وتلغيه. والنتيجةُ ارتفاعٌ في وتيرة الشخير الذي يمزِّق طبلة الأذن ويطغى على ما عداه من أصواتٍ ترغب في أن تزّف بُشرى بغدٍ أفضل ممتلىء إشراقاً.

إن حالةَ الأستواء، ويمكن أن نُطلق عليها لقباً آخر هو الإجماع سواء في النظَر إلى الكون أو في السبيل إلى تحقيقِ الذات، سوف تؤدي إلى غربةٍ قاتلةٍ ومدمرة يحياها أناسٌ ذوو ألباب يشخصون - في دأبٍ لا ينقطع - نحو إيقاظ الملكات الهاجعةِ في القعر من الكائن الفرد. وإذا أردنا تعداداً لهذه الملكات فإنها تبدأ في أن يمتلك مثلُ هذا الكائن حقَّ تقرير مصيره، وأيضاً الحقَّ في أن يدحر قوى الخرافة التي امتدَّ نفوذُها ليطول العقلَ والذهنَ والنظر إلى الآخر.

(*) منشورات دار الكلمة - بيروت.

إن أحمد المديني الذي استساغَ العملَ من ضمن الآليّةِ اللغويّة الصوفيّة يسعى إلى جعل الرمز والمُرمَز إليه شيئاً واحداً. كأنّي به أراد أن يتمثّل كرامات أدّعاها الحلاجُ القائل بأن «الله في هذه الجبة». هو الحلولُ في الخالق وحلول الخالق فيه، لا فرق. الرمزُ يصبح نفسَه، المُرمَز إليه. ولأنَّ الكاتبَ ذو صوفيةٍ مغايرةٍ فإنه لا يبحثُ في هذا المعنى من الحُلول أو التماهي. الخطابُ الصوفيُّ، هنا، لا يهدفُ إلى تحديدِ العلاقةِ بين الإنسان وربه، وإنما إلى نظرٍ في تلك الرابطةِ المقدسةِ (رغم ما يعتورها من عهرٍ وفجور) بين الحاكم والمحكوم. فنحن نرى إلى الكاتب وهو يصوِّر لنا الطَّوْر الذي بَلَغه حلولُ الواحد في الآخر. لكنْ مثل هذا الحلول لا يصنعه فريقان متكافئان، لا يصنعه حوارٌ حضاريٌّ بين الاثنين، وإنما تلك الآلةُ القمعيةُ التي تضربُ بغير رحمةٍ والتي يملكها (أو يَرِثها) الحاكم. من هنا، كما أرغب في أن أرى، لجوء الرواية إلى ما يمكن أن نسمّيه قصيدة النثر. فما دام أن الأمر، والحالُ هذه، لا يقبلُ الكلامَ المباح، فان خير الأمور هو التعلّق بنواحي اللغة الشعرية أو اللغةِ الملغزة، خشية الوقوع في المحظور.

على هذا فنحن بازاء نصٍ لغويّ يهتم بالإبطان أكثر مما يهتم بالإبانة وبتفصيح خطابه، مما أدى إلى الأخذِ بالشعريّة كأداةٍ للتعبير الروائي. ففي رواية «وردة للوقت المغربي» ثمة كائنٌ نخبويّ يصارع المقدَّر المكتوب، وهو لا يملك أن ينزل إلى الميدان بغير سلاح الكلمة الشعرية. لأجل ذلك فإن السلاح الذي يمتشقه الكائن النُخبوي في صراعه مع ثنائية الحاكم والمحكوم التي تمتّنها عروةٌ وثقى لا تنفصم، يبقى الأوفر حظاً رغم كونه، في أحيان، سلاحاً مغلولاً وصدئاً ومطعوجاً. ومهما يكن من أمر الكلمةِ الشعرية التي يمتشقها أحمد المديني، فإن الدخول إلى حقل الرواية المغروس بالرموز والدلالات لا يتوفّر إلا من خلالها. فَلُغويّةُ النَّص تجعلنا مسُوقين إلى الاعتناء، قبل أي شيء آخر بالمفردة، ذهاباً إلى أن ثمة دلالةً مخبوءة في جوفها. ليس مستحسناً التعويل على (الكلام المباح) الذي نصادفه حيناً بعد حين في مسرى الرواية. ينبغي أن نُيمِّم شطرَ المنطقة الوعرة حيث جملة من الدلالات تنتظرنا. قليلٌ من التفكيك للجهاز الدلاليّ (السيميائي) المنضوي في اللغة الشعرية يستدرجنا إلى مزيدٍ من الخوض في العالمِ الخاصِ للرواية. العالمُ الخاصُ ليس إلا مجموعَ وجهاتِ النظر والرؤى والتنظيرات يلقيها الكاتبُ في وجوهنا أولاها أن الطريق مسدود ولا سبيل إلى الفكاكِ من قيودٍ تفرضها الجموعُ (= الجماهير) على الجماعة (= النخبة). فعندما الأولى تفرضُ خطابَها السلطويّ (ربما عَنَيْنا بالسلطويّ هنا، سلطة العقل الخرافي الغبي) ليس أمام الثانية إلا أن ترطم رأسها بجدارٍ وتفجَّه. إنها عبرةٌ نستمدّها من مُعاشٍ تنخرُه سوسةُ الخَبَل واللاعقل. ولكن العبرة الجديرة بأن نتنزعها من هذا العالم، كما يريد المؤلف، هي انتحارٌ شجاعٌ لمن أراد إليه سبيلاً. إذن الانتحار، ولا شيء غيره، بإمكانه أن يبدِّل الحالَ بحال. أن يجعل الانسان في هذه البقعة أو الرقعة من العالم، يستشعرُ كميةً من الأمان والحرية.

ولكنْ اين تقع هذه الرقعة؟ وهل من جغرافيا معينة تدور أحداث الرواية بين حدودها؟ لقد أخطأ الراوي عندما حدَّد جغرافيته الروائية ضمن الإطار المغربيّ. اكتفى بأنه غَرَّبَ حين كان مطلوباً أن يُشَرِّق أيضاً ما دام شرق العرب وغربهم يتآصران ويجتمعان على أمرٍ واحدٍ مفردٍ نستطيع أن ندمغه بدمغاتٍ عدة بينها: النفاق الفكري - السياسي - الاجتماعي، وبينها السلطة القمعية للخطاب الخرافي المناهض للعقل، وبينها السّحق المستمر، التفكيك المستمر لأوصال الكائن النخبوي من قبل الجموع الهائجة الشاردة المدوَّخة.

مهما يكن فإن أحمد المديني دقَّ عصا ترحاله في إحدى هذه المدن التي تتشابه، في هذا الوطن الذي يتشابه، وبين سكان كثيراً ما يتشابهون «وإن اختلفوا في السحنات ونَسَب التكرُّش ودرجة الانحناء أمام الشرطة». وبينما يحكي لنا عن هذه المدينة لا بد وأن نستشعر نزوعاً صوفيًّا لدى الكاتب. فهو طالما استعان بمفرداتٍ من المعجم الصوفي كالخشوع والقامات المحنيَّة والوجوه أو الجباه المعفَّرة بالتراب والعلامات وسطوع البرق والتحليق في الفضاءات العالية إلى غير ذلك من تعابير قلما نقع عليها خارج القاموس الصوفي.

لكنّ الصوفيّة التي يعتنقها أحمد المديني (وهذا جانبٌ آخر) لا تمت بسبب إلى صوفيّة الحلاج أو السهروردي أو ابن عربي الذين كان تصوُّفهم جسراً إلى الله، بل هي الصوفية التي تعبِّر عن موقفٍ ماقتٍ للأنماط السائدة ورافضٍ لها. إنها، كما نستطيع أن نبرهن، تعبيرٌ عن الحرية، تحطيمٌ لكل علاقةٍ مع خارجٍ (= مجتمع) تبذَّل وبات ينطق بالعهر. دعونا نسمعه يتحدث عن هذا الموقف: «وجهُ الخلاف بيني وبين الخلق أجمعين حول الاستواء والتململ. فأنا لا أفهم أن الأرض كرويّة الشكل أو بيضاوية أو صفراء أو زعفرانية.

كما لا أفهم أن فيها عدداً من القارات وما لا حصر له من الأجناس والقبائل. في ديارنا توجدُ العشائر وحدها. زد على هذا أن الصحارى والشوارع عندي سواء، وبَشَر الرماح والكلاشينكوف هم ذاتهم ما دامت ريحُ البلاهةِ تصفر في أدمغة الجميع» (ص ٦).

لنعُد إلى المدينة التي يجول الكاتب ـ البطل في أزقتها وشوارعها. لن نجرؤ، ابتداءً، على الإلحاح بأن الكاتب يستضيفنا في مدينةٍ متخيَّلة عُمِّرت بعرق الذهن وكدِّه، بل هي المدينةُ العربية الجاهزة التي يجلوها لنا أحمد المديني ويزيح الستائر عن مشاهدها الحقيقية. لا يحدّها طولٌ ولا عرض، لا قربٌ ولا بُعد، لا شكل لها ولها كل الأشكال. بسبب ذلك لم يعُد أحدٌ فيها يأبه لأحد أو شيء سوى للحظةٍ معلومةٍ من دورة الليل والنهار. تسمعُ فيها صفارة إنذار. ربما أتت من المذياع أو الفضاء أو خرجت من الألياف أو ثقب المراحيض العمومية، «كما قد تقفز من حنجرة أحد المصلحين يتهدد الشباب وينذرهم مغبة الكفر والإلحاد والمروق والزواج من الأجنبيات وشرب البيرة واقتناء الكتب والملابس التي تفوح بالأفكار المستوردة والايديولوجيات الهدامة». وقبل أن يصل في وعيده إلى الدَّرْك الأسفل من جهنم تنطلقُ صفارة الإنذار «فيهبُّ السكان فزِعين فرحين ملوَّثين مهرولين ناحية الصوت. ويذكرُ بعضٌ عمن لم ينقرضوا، أو كما ظَهر من حفرياتٍ كُشفت حديثاً، بأن الجرذان والجعران والزنابير، وما مشى في الأرض وحلَّق في السماء كان يهبُّ جهةَ الصوت، حتى إذا اجتمع الكل، واكتظت الأرض، وما بين الأرضِ والأرض، وما بينها والسماء، سطعَ ضوءٌ كالبرق لا ترف له العيون، وهي خاشعة والقامات محنيَّة، يُرى طيفٌ ولا يُرى، إذ من يجرؤ على النظر، فإذا كان الطيفُ يتوارى تُحسر كل الرؤوس، والوجوه معفَّرة بالتراب، فتُبصَمُ بعلامة، وويلٌ لمن ضاعت فيه أو منه العلامة» (ص ٩).

في هذه المدينة التي يحترفُ أهلُها الركوع للنبي والتسبيح بذكره لا يجد الكائن النُّخبويّ غير أن يثير حرباً لا هوادة فيها مع الجموع التي قررت الدَّوس على أملٍ ينعجقُ به صدره. إنه إذن، ومثلما دعوناه قبل قليل، الصراعُ بين الجموع والجماعة. الصراعُ، هنا، لا يسير بنفس الوجهة التي اتّخذها له في الخطاب العربي المعاصر لجهةِ كونه صراعاً بين سلطةٍ قمعيةٍ وبين جحافل من البشر دِيسَت كرامتُها وهدِر حقُّها، بل إن الكاتب هَبَط إلى الميدان كيما يخوض معركة مع هذه الجحافل أو الجموع المُتَمَسكنة نفسها على أنها السلطةُ القمعية الأخرى الموازية ـ ولكن بأكثر خطورة ـ لسلطةِ الحاكم. وإذا سُمِح لنا أن نُطلق على هذه الجموع لقباً آخر فليس غير العقلية الجماعيَّة ما يليقُ بها. العقليةُ الجماعيَّةُ تفرمُ لحمَ الخطابِ التنويري، تدوسه بالأقدام دون أن يرفّ لها جفن. هي الشر المستطير الذي يَرى إليه أحمد المديني أنه عائقٌ، فريدٌ من نوعيَّته وطبيعته، نحو السير إلى الحرية والنهضة.

لا نغرب في التوقف عند هذا الحد بل القول إن العقلية الجماعية في ارتكابها الإثم اليومي، تجد دائماً من يُعينها ويشدِّد من عزيمتها في المرجعية العليا التي يعزُّ عليها أن تحتل السماءَ وحدها دون أن يكون لها سيطرة على الأرض. لهذا كله فان الكائن النخبوي يصبح بين فكَّي الكماشة: بين سلطةٍ تحتلها عقليةٌ جماعيَّة مستبدة وأخرى لحاكمٍ مستبد.

* * *

ولكنْ لندع هذا الجانب «الايديولوجي» في الرواية، ولنتجه قليلاً نحو الجانب الأكثر أهمية؛ نحو النَّص كبنيةٍ بذاتها. ما يقدمه إلينا أحمد المديني، كما اعتبرنا قبل قليل، إنما هو نصٌ لغويّ. اللغةُ، في هذا الفعل الروائي، تكشفُ عن أجمل مفاتنها. نقول ذلك بينما نعلمُ المشاكل اللغوية التي يعانيها النص الروائي المغربي. فبالرغم من الحضور الدائم. والطاغي أحياناً، للبُعد الايديولوجي المضموني نجد أن ثمة شكلاً، أو بناءً، تنطبق عليه أهم مقومات النظر الشكلاني في التناول النقدي للرواية. سوف نتلمَّس شُبَهَ ذلك في مقدرة الكاتب على حقن المُرسلة الكلاميَّة بشحناتٍ نفسية متوالية. لنقرأ هذه الفقرة: «الذين شاهدوا تلك الليلة كانوا قلةً. والذين اقتيدوا كانوا من الكثرة بأن استحضروا لهم أعداداً غفيرة من القوات والعسس وحَمَلَة الهراوات حتى تَغطَّى بهم الأفق. ودمدمت الأرضُ ولكنْ القوم كانوا نياماً. ويذكر أحدُ الشهود الذين قدِّر لهم أن يشهدوا، من فجوةٍ في حائط، أنهم صنعوا ليلاً اضافوه إلى الليل ليحتجبوا. أطلقوا في الفضاء روائح وأصواتاً تُنيم كل مؤرق وتُخرِسُ كل سامع، وأنهم لم يسيِّجوا الأرضَ وحدها بل طوَّقوا السماءَ بأسلاكٍ ووجوهٍ وتمائم. وحين اكتملتْ عدَّتهم وعديدُهم زحفوا مختلِطين بالليل ومحتجبين بالليلِ حاملين الليلَ إلى ليل الأمة» (ص ٨٣).

فلو خُيِّرتُ بين أن أتناول رواية أحمد المديني من جانبها الشكلانيّ أو من جانبها الآخر، المضمونيّ، لما ترددتُ في اختيار الأول حيث أن المفردة الروائيّة عنده على قدرٍ من التكثيف والتزخيم، مما أدّى إلى بلوغ البُعد الفني مداه الأقصى. فالكاتب يقبض جيداً على ناحية اللغة جاعلاً منها العمودَ الفقري لروايته. ولئن كانت لغته المتداعية، المنطلقة على السجية، تستسيغ المكوثَ في منطقة الشعر (ثمة أكثر من مقطع شعري في صلب النص) غير أن ذلك لن يقلِّل، بنظرنا، من أهمية الفعل الروائي. إنه الفعلُ أو العمليةُ الكتابية التي تسعى إلى خلق حالةٍ حواريّةٍ بينها وبين المتلقّي. وما دام الأمر على هذا النحو، ودفعاً لمثل هذا الحوار، فليس على الكاتب إلا أنه يحفر طرقاً عدة؛ فأمامنا الطريق اللغويّ الصرف الذي يتصل بمنطقة الشعر. وأمامنا أيضاً الطريق الايديولوجي، ثم الطريق المتّصل بتلك البقعة من الشحنات النفسية المتوالية كل هذه الطرق تؤدّي إلى الطاحون، أي إلى فعل روائي متكامل هدفه الأول والأخير إحداث رجّةٍ في حواس المتلقّي وإقناعه بما يريد قوله. وليس من بابِ عجبِ القول إن السّهم الذي أطلقه أحمد المديني أصاب مرماه، وبدقة.

الأميرة الخفية

بيار أبي صعب

الساحات تعرفكِ
وأنا أشيخ منكِ كوجه يألف تجاعيده
لا أصدقاء لك سوى أطياف منزلنا
وسريرك
والنساء اللواتي لن أعرفهن، يسهرن على الرفوف
الغرف التي لم أدخلها
والأمسيات عند الشواطىء
لم أسكنها كما تسكنين جسدنا
والأشياء
تصير لنا، والمقاهي وسائر أحلام
مراهقة متأخرة.

■ ■ ■

لو يعرفون سرنا
وكم يصعب تمييز المساء عن الكآبة
والموج عن الصيادين
فصل العنب عن الدمع
والغابة عن الكبرياء
وكم أسافر لكي أجدك، وتخذلني الحقائب
واللغات... ومفتشو الميترو
نرتشف نبيذ الخيبة
بينما تتدلى أطراف النقاش كخيط ناسل
(الا تتعبين من المماحكة؟)
نستريح مع الكؤوس الفارغة
والنظارات المستديرة لآخر التروتسكيين.
وأنا أناضل كي أحتفظ بمناديلك
وأرويك لكل قادم
كما تنضج الآنية بما فيها
وتشمر الفساتين المريحة، فاتحة أبواب الليل.

من ندعو إلى هذه الجزيرة
حيث لا نملك إلا النقمة الهادئة
فيقاسمنا ثمارنا التي لا تؤكل
وشهوة «دموية» للعصيان
من يقبل بشيخوخة مبكرة
تزيد العمر بهاء
ويعتاش مثلنا من رائحة الصحف
ومحتويات الأدراج
كما يعيش البق في لحى المتسولين الظرفاء
ولو ماتوا من زجاجات الخل الكثيرة.
من اللامبالاة والشرطة.
من غباء القطيع.

■ ■ ■

الساحات تعرفك.. ثم ماذا؟
ليست غريبة هنا، بل أميرة خفية
تترقب انتهاء العالم
ماذا غير القيلولة كي أختلي بك
ماذا غير أصابعي
أفسد اهراء الكلام
أغربل ابتساماتك
ماذا تحت أقدامك غير بحر بعيد لم يعد لنا
وأصداف خرافية تحتفظ بلهاثهم
ماذا غير الآهات الطويلة
كلما غافلتني أسرح في الزواريب الضيقة
حيث الباعة والمنجمون يقعون في الذاكرة
قرب بساطاتهم
أندس في الصمت
كي أشاهد نومك
وأسرق لك أقراطاً تحبينها
ماذا غير لغة لا نملكها تفتح بهرجها لتحضن عرينا

■ ■ ■

ماذا لو تعيدين اللحظات المسروقة
لو تبقين هكذا في انتظاري
فلا أجيء
حبذا

قصة قصيرة

جمرة لهذا المساء الثلجي

فاطمة عبود نداف

ابتدأ المساء مجمهراً ظلمته على حدود النوافذ، فتجلت أضواء البواخر الراسية في الميناء مثل نجوم صغيرة في مجرّة . . .

ما من صوتٍ أو نأمة . . سوى دقات الساعة الرتيبة . . فقد غفا الطفل ذو السنتين بعد أن هدهدته أمه بأغنيات حفظتها منذ الطفولة عن جدتها وأمها . . . وغاب الرجل في إحدى حانات المدينة يشرب ثمالة المدن التي أعلنت عن غيّها فخانته ثم لفظته . .

تكومت المرأة في كرسيها أمام جهاز التلفاز وقعد في حضنها كتاب لم تقرأ منه شيئاً . . تسللت نسمات ناعمة عبر النافذة المفتوحة على البحر فأنعشت ذاكرتها . . .

هذا المساء التمّوزي شديد الرطوبة . . وجه المذيعة يملأ الشاشة الصغيرة تداخلت أصوات كثيرة مع صوت المذيعة . . . ترددت في داخلها . . ثمة رائحة تمددت في شرايينها فأشعلت في جوانحها مشاعر مضطربة وأثقلتها بصور بعيدة . . .

هي المدن . . .

كالبشر نألفها وندمنها . . نشم رائحتها وتبقى ملامحها عالقة في الذاكرة حتى وإن تناءت ما بيننا المسافات فإنها تأتي الينا معبّأة في الأحلام . .

استرخت المرأة وبحلقت في فضاء الغرفة . .

تلك المدينة الشامية الجالسة في أقصى الشمال حول قلعة ناهضة منذ عصور بعيدة.

رغم السنوات التي مضت وهي تقفز بحقيبة سفرها من بلد إلى آخر لم تغادرها تلك المدينة يوماً واحداً . .

ولدت فيها بعد عام النكبة الأولى بشهور . . وكان أهلها قد جاؤوها لاجئين من إحدى قرى حيفا، وسكنوا في مخيم على طرف من أطراف المدينة ثم انتقلوا بعد عدة سنوات إلى حيّ شعبي من أحيائها القديمة ليبقوا على مقربة من المحل التجاري الذي اشتغل فيه والدها . . في البداية كانوا ضجرين بغربتهم وفقرهم وسط عالم مكتوم في ذلك الزقاق الحجري الذي ترتص فيه البيوت المقفلة والشبابيك الخشبية المغلقة وايقاع الرتابة المشبع بأنفاس القرون الوسطى . . ثم ببطء نشأت ألفة حميمة بينهم وبين ذلك العالم الغريب . . . تفاصيل كثيرة حفرت في نفسها تآلفاً لم تمسحه المدن الأخرى . . . ربما لأنها عاشت طفولتها وفترة من صباها هناك . .

صور كثيرة تتزاحم في ذاكرتها . . . أصوات أغنيات شعبية . . أهازيج الأعراس . . مدرستها . . بنات الجيران . . صديقاتها . . تجربة الحب الأولى الكلية . . الأمسيات الشعرية . .

ربما . . لأنها التقت فيها بالرجل الذي أحبته ثم تزوجته وهاجرت معه . . .

بكى الطفل . . .

فانتفضت وأسرعت إليه تحضنه، عاد الطفل إلى غفوته بعد أن اطمأن إلى صدر أمه . . أرقدته بحذر وانسلت إلى النافذة . . .

أسندت مرفقيها على الحافة تنظر السماء بعينين بليدتين . . . لا شيء فيهما . . فقد تحنط الحزن وتجمد الدمع . .

صوت المفتاح يدور في قفل البـاب . . توقفت أنفاسهـا لثوانٍ وهي تكتم انفعالها . .

رسمت ابتسامة بلهاء على شفتيهـا وذهبـت تستقبـل رجلها . . .

ـ تأخرت اعذريني

ـ لا يهم مثل بقية الأيام . . وأنا بنيلوب أنتظر . .

ـ أنا جائع .

ـ العشاء جاهز . . خمس دقائق حتى أسخنه . .

أخذ يمضغ طعامه بميكانيكية ويتفوه ببعض الكلمات عن تفاصيل يومه .

ـ هل قرأت صحف اليوم

ـ تصفحتها على عجل . . لا جديد!

ـ كيف حال الصبي؟

ـ بخير، سأل عنك قبل أن ينـام .

ـ سأوقظه .

ـ كما تشاء . . ألا تشرب الشاي؟

ـ لا ، ناوليني زجاجة بيرة باردة .

ـ حاضر .

ـ ومعك الراديو . . حان وقت الأخبار

تمدد الرجل على الأريكة يستمع إلى نشرة الأخبار ويقرأ في مجلـة . . . جلسـت المـرأة تحـوك الصـوف وتشاهـد التلفاز . . .

يتقاطر الزمن . . عقارب الساعة تمشي ببطء . . تتثاءب المرأة بعد يوم عمل مجهد . . . تتذكر شيئاً . . . تنهض . . . يرفع الرجل عينيه عن صفحة المجلة . . .

ـ ما بك؟

ـ تذكرت ، وصلتك رسالة اليوم .

ـ رسالة ممن؟

ـ من الأهل . . سأجلبها لك . . .

استوى الرجل في جلسته . . فضَّ طرف الظرف بلهفة . . . ابتسم وأشرق محياه تابع قراءة الرسالة . . قطب حاجبيه . . اكتأبت ملامحه . . انقبض قلبها وتوقفت أنفاسها وهي ترقبه . .

ـ كيف حالهم؟

ـ بخير .

ـ هل من أخبار جديدة؟

ـ كالعادة . . مشاكل . . لا بد من سفري إليهم . .

ـ وهل تستطيع؟

ـ يقولـون إنهـم عملـوا لي تصريحـاً بدخـول الأرض المحتلة . . . .

عادت المرأة إلى حياكة الصوف واستلقى الرجل على الأريكة مشتت الذهن يفكر في أمـور كثيرة . . البيت . . الطفل . . الزوجة والأهل . . الوطـن . . الغربـة مسؤولياتـه المتشعبة . . .

نظر بطرف عينه إلى المرأة الجالسة قبالته كتمثال أثري . . هل يصدق نفسه بأنها كانت قطرة النـدى التي سقطـت في صحرائه فاخضرّت ربيعاً؟ هل يمكن لهذه الهضبة اللحمية أن تكون في يوم ما غزالاً فجّر في قلبـه الأمنيات؟ شعـر بحقـد يلهـب أحشـاءه المترعـة بالخمـر والطعـام . . وأخـذ يلعـن «داروين» الذي قال بأن القرد تطور إلى إنسان . . . انظر أيها الـ داروين المغفل كيف يتحول الإنسان إلى قرد! . . .

قهقه بصوت مجلجل . . نظرت إليه بارتياب .

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ تذكرت نكتة حكتها لي زميلة هذا اليوم . . .

ابتسمت بسخرية . . تذكرت سلسلة الحكايا الخرافية التي ينسجها حول نفسه كي يثير غيرتها . . ضحكت .

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ تذكرت حكايا مشابهة لقصة اليوم .

تباً لك أيتهـا المـرأة الصغيرة . . من أي طين جبلـت؟ حسناً! لتعلمي بأنك لم تعودي أنثاي المشتهاة . . مجرد زوجة ألفتها وأدمنتهـا . . فقـدت طعمهـا . إنـي أحلـم بالنسـاء الجميلات . . وأشعر بإحساس غريب ينتابني كلما صادفت امرأة غزالة . . لقد ماتت تلك العواطف التي دفعتني للارتباط بك . . . أما الاستمرار معك فهو شيء قرره وجود الطفل بيننا . . فأنا لا أريد أن ينشأ ابني معقداً . . كل ما أسعى إليه أن ينمو بشكل طبيعي وسط جو أسري . . أب . . وأم . .

جاء الصبي . . وهو يعرك عينيه من أثر النوم .

ـ بابا .

ـ حبيبي هل صحوت؟

أخذه الرجلُ في حضنه يقبله . . ثم أبعده .

ـ لقد بال على نفسه . . خذيه إلى الحمام . .

حملته بين ذراعيها فتشبّث بشعرها وراح يرفس بقدميه في الهواء . . خلعت عنه ملابسه المبللة . . وفتحت الماء الساخن على الحوض لتملأه فهرب الصبي منها وعاد إلى أبيه عارياً مكركراً . . تعثر فوقع على الأرض . . ركضت المرأة وهي تصرخ:

ـ أيها العفريت! تعالَ معي . .

هرب منها الصبي واحتمى بحضن أبيه . .

ـ اذهب مع ماما لتستحمّ وتلبس ملابس نظيفة وبعدها تعال لأحكي لك حكاية حلوة عن بلد اسمه فلسطين . .

ـ لا ، أليد (أريد) الدب والثعلب . .

ـ سأحكي لك ما تريد بعد أن تلبس بيجامتك . .

ذهب الولد مع أمه . . فأغمض الرجل عينيه يسترجع بقايا صور من قريته الجبلية التي غادرها عام ٦٧ بعد النكسة الثانية ليتابع دراسته في إحدى المدن العربية . .

كم أثقلته السنوات وهو يحلم باليوم الذي يعود فيه إلى أرضه وأهله الذين غادرهم . .

جاءه خبر موت أبيه تاركاً له إرث أكوام صغيرة من اللحم تحتاج رعايته وهو البعيد . . فاشتغل في أحد المطاعم قبل أن ينهي دراسته في كلية الهندسة وأصبح موزعاً بين مسؤوليتين . .

مرة فاض به الشوق وقرر أن يزورهم بعد غياب سنوات طويلة . . . عبر الجسر بتصريح رسمي . . فألقت عليه القبض سلطات الاحتلال بتهمة التخريب قبل أن تطأ قدماه أرض الضفة الأخرى ومكث تحت أفانين التعذيب الوحشي عشرين يوماً . . نقل بعدها إلى أحد المعتقلات دون محاكمة . . .

كتب أشعاره الأولى في المعتقل فنقلها أحد الفدائيين إلى خارج الأرض المحتلة وطبعت له في ديوان . . .

أفرجت عنه سلطات الاحتلال بعد سنتين مع أمر بالنفي . . فحمل البندقية . . .

والتقى صدفة بامرأة أحبها فتزوجها . . وكتب لها قصائد غزلية كثيرة . . وثقلت عليه أعباء المنفى وأعباء النكسات فهرب إلى قصائده التي لم يكتبها بعد . .

حملت زوجته فأحس بالأبوة قبل أن يكتمل الجنين ، لكنه فجع بإجهاضها اثر معركة بيروت الأولى . . . وكانت فجيعته مزدوجة ، فكان الحمل الثاني مضنياً لهما . . حتى جاء الطفل فأضاء جانباً من حياته وبث فيها حباً للحياة . . فقرر بينه وبين ذاته أن يعيش لهذا الكائن الجديد . . . باختصار . . لقد بات يرى نفسه ثانية من نور عيني هذا الطفل . .

صرخت المرأة بالتياع :

ـ أنجدني . .

هب واقفاً وقد تجمد الدم في رأسه :

ـ كاذا جرى؟

ـ أسرع إلي . .

تعثر بالأريكة وفقد توازنه . . لم يدرِكم استغرق الوقت حتى وصل الحمام . . فوجد الصبي مزرقاً جاحظ العيني بين يدي أمه .

خطفه منها وصاح :

ـ ما به؟

ـ لست أدري . . كنت أضع على رأسه المنشفة فتوقف تنفسه فجأة .

ضغط على صدر الطفل بقوة . . وضع فمه على ثغر الصبي ليعطيه الهواء . .

ـ أسرع بنا إلى المستشفى .

تذكر الرجل شيئاً فجن وصرخ :

ـ هل أخذت منه قطعة النقود التي أخذها من جيبي . .

ـ لم أر معه شيئاً؟

ـ كان يطبق عليها راحته بقوة . . لا بد أنه ابتلعها . .

بدا الطريق إلى المستشفى طويلاً كامتداد الزمن . . حاول سائق التاكسي أن يهدىء من روع الأبوين .

ـ بسيطة يا أخي إن شاء الله سليمة .

كانت شفتا الرجل ترتجفان وهو يرى ابنه على وشك أن يفارق الحياة . . أما المرأة فقد أخذت تنظر إليه وهي في شبه غيبوبة عاجزة عن النطق . .

أدخل الصبي غرفة الطوارىء وجرى الطبيب الجراح بمباضعه آملاً انقاذه . .

وقف الاثنان أمام الباب المغلق .

الرجل يدخن ويتمتم مستنجداً بالإله .

الأم تضرب صدرها ورأسها وتسكب الدمع بصمت . .

تلتقي عيونهما . .

يرى في عينيها الدامعتين غزالته التي استنزفها زمن وحشي فيخفق قلبه . . يتقدم إليها يمسك يدها ، يقبّلها . . يحيط كتفيها بذراعه ليمدّها بشحنة من الأمان المفقود . .

- ارحمي نفسك وارحميني . .

نظرت اليه ثم تعلقت عيناها على الباب المغلق . . لم ينبس بكلمة وغابت عن الوعي . .

التقطها بين يديه وأجلسها على كرسي قريب . . صاح بحشرجة .

- يا رب أية كارثة حلت بنا ! . .

اسرعت إليه إحدى الممرضات .

- هل آتيك بكوب ماء . .

- أرجوك

فتح الباب المغلق . . اطل وجه الطبيب مرهقاً . . . تنفس بارتياح .

- الحمد لله لقد نجا بأعجوبة .

تنهدت المرأة

- الحمد لله . .

نهضت متثاقلة وأمسكت بيد زوجها وضغطت عليها بحرارة .

الموت والإنسان الحديث

بقلم: جاك شورون
ترجمة: كامل يوسف حسين

لم يقدر للإنسان قط* أن يصبح متصالحاً حقاً مع ضرورة تقدمه في السن واضطراره للموت. ويعود البحث عن نبع الشباب وإكسير الحياة إلى عهد مغرق في القدم، وهو يستمر اليوم بلا هوادة. لكن انتفاء الموت اتضح للإنسان تدريجياً باعتباره أمراً مستحيلاً، فيما هو يطل من رحاب البراءة البدائية، فأدرك أنه فان، وأن الموت قدر لا مهرب منه. وأنه كذلك فيما يبدو خاصية جوهرية للحياة بأسرها. من هنا، فإنه حينما بدأ الإنسان في دراسة الحياة بصورة علمية، وسعى لتحديدها، بدا أنها يتعين أن تكون مرتبطة بالموت. هكذا، فإن عالم الفيزياء الفرنسي كزافييه بيشا X. Bichat عرّف الحياة حوالي نهاية القرن الثامن عشر باعتبارها «إجمالي كل تلك الوظائف التي تقاوم الموت».

ولكن ما هو الموت؟ إنه «نقيض» الحياة. من هنا، فإن تعريف الحياة من خلال علاقتها بالموت (وتعريف الموت من خلال علاقته بالحياة) يلقي بالمرء في دائرة جهنمية، وبالتالي فإنه ليس بالتعريف الحقيقي. ولتجنب هذه الصعوبة قام العالم الفرنسي الكبير كلود برنار C. Bernard بعد ذلك بنصف قرن، بتقديم توصيف إيضاحي للحياة من خلال جوانبها الظاهراتية الأكثر أهمية، مثل التنظيم، التوالد، التغذية، التطور، المرض، الشيخوخة، والموت. لكنه بدوره يختتم بمفارقة قوامها.. «La vie c'est la mort» إن الحياة هي الموت.

لو أن هذه العبارة الأخيرة نظر إليها باعتبارها تعبر عن الملاحظة القائلة بأن أي شيء أوتي الخصائص الست الأولى سيأتي عليه حين من الدهر يكف فيه عن الافصاح عن ذاته ويصبح «ميتاً». فمن المؤكد أنها ستبدو صحيحة فيما يتعلق بالحياة على نحو ما تواجهنا في مجال الكائن الفردي الحي. ولكن ماذا عن «الحياة» على إطلاقها؟ أوليس الفرد مجرد عضو في وحدة حياة أعلى هي الأنواع تبقى فيما يفنى الفرد؟ أليست الحياة لا المادة - كما يذهب بعض الفلاسفة - هي الحقيقة المطلقة ومن ثم فإنها باعتبارها كذلك أزلية؟ وباختصار فإن الموت قد دخل عالم الحياة غير الفاني من خلال بروز الطابع الفردي فحسب. ومعه ذلك فإن الرؤية القائلة بأن الموت ليس خاصية ضرورية مصاحبة للحياة تظل رؤية تكهنية بصورة محض.

من هنا، فقد أثار عالم الأحياء الألماني أوجست وايزمان A. Weismann ضجة حينما أعلن في عام ١٨٨٢ أن دراسة الكائنات وحيدة الخلية قد مضت به إلى استنتاج أنه على الرغم من أن الكائنات المعقدة تموت، إلا أن الموت ليس قانون الحياة الذي لا يرحم، ذلك أن الخلايا الفردية الحياة تبدو أزلية.

«ليس الموت، أي نهاية الحياة، سمة لكل الكائنات الحياة. على نحو ما يفترض عادة. فعدد هائل من الكائنات الدنيا لا يموت، على الرغم من أنها تدمر، وتقتل بسهولة من خلال الحرارة والسم إلخ. غير أنه طالما تحققت تلك الشروط الضرورية لحياتها، فإنها تواصل الحياة، وتحمل إمكانية الحياة التي لا تنتهي في ذاتها[1]».

إني لا أعتبر الموت ضرورة أولية، وإنما اكتسب بصورة ثانوية كنوع من التأقلم. وأعتقد أن الحياة منحت ديمومة

---

* الفصل الأول من كتاب «الموت والإنسان الحديث» الذي يعمل المترجم على إنجازه.

ثابتة، لا لأنه يتناقض مع طبيعتها أن تكون غير محدودة، وإنما لأن الوجود غير المحدود للفرد سيكون رفاهاً بلا ميزة تقابله[٢].

وفي إبلاغ تال لرسالته، ورد في مؤلفه «في الحياة والموت» في ١٨٨٣، يقول وايزمان مكرراً إن «الموت ليس، على نحو ما جرى افتراضه حتى الآن، ظاهرة حتمية، جوهرية بالنسبة لطبيعة الحياة ذاتها»[٣].

وفقاً لنظرية وايزمان، فإن التقسيم البدائي للخلايا قد أفرز نمطين: الخلايا الفانية للجسد بالمعنى الضيق للكلمة (Soma) والخلايا الجرثومية غير الفانية. إنني أعتقد أن خلود الكائنات وحيدة الخلية والخلايا التوالدية للكائنات متعددة الخلايا هو حقيقة لا موضع للنزاع فيها»[٤].

اعتبر وايزمان أن معارضة نظريته هي نتاج للخلط بين استخدام اصطلاحي «خلود Immortality» و «أزلية eternity». فهو لم يذهب إلى القول بأن الكائنات وحيدة الخلية قد وهبت حياة أزلية، الأمر الذي سيعني أنها بلا بداية ولا نهاية. رغم أن الحياة العضوية على الأرض كانت لها بداية في وقت ما.

«ليس خلود الكائنات وحيدة الخلية والخلايا الجرثومية... بالأمر المطلق، وإنما هو أمر محتمل» ذلك أنها ليست مجبرة على الحياة إلى الأبد، على نحو ما كانت آلهة اليونان القديمة... ولكن الحياة التي حينما تضرب جذورها يوماً تتواصل دونما حد سواء أصحبها تكيف أم لم يصحبها [بمعنى تغيرات محددة في الكائنات أحادية الخلية أو في الجبلة الجرثومية germ plasm للكائنات متعددة الخلايا] وهذه الخاصية هي التي أسميتها بالخلود، وهي في الطبيعة العضوية الخلود الحقيقي الوحيد الذي نصادفه. إنها مفهوم بيولوجي محض، وينبغي تمييزها عن خلود المادة غير الحية، أي المادة غير العضوية الذي يتواتر على الدوام في دائرة، ولا يرتبط بقوة تميل إلى إيقاف تقدمها، على نحو ما لا ترتبط حركة الكواكب بشيء يوقف تحركها على الرغم من أن لها بداية، ويتحتم في المستقبل أن تنتهي، بتأثير أسباب خارجية»[٥].

وقد طرح الاعتراض القائل بأن انقسام الكائنات وحيدة الخلايا هو موتها. ولكن وايزمان يرد بحجة معاكسة، فيقول: «إن هذا العملية لا يمكن حقاً أن تدعى بالموت. فأين الجسم الميت [الجثة]؟ وما الذي يموت؟ لا شيء يموت، فجسم الكائن يقسم ذاته فحسب إلى شطرين متماثلين لهما التكوين ذاته. وكل من هذين الشطرين يشبه تمام الشبه الشطر الآخر الذي هو أبوه»[٦]. وهو يتصدى للاعتراض القائل بأنه إذا كان الكائن الأب لا يموت على وجه الدقة إلا أنه يختفي كفرد، بالحجة القائلة بأن هذا يمكن أن يكون صحيحاً فحسب إذا أقررنا بأن رجل اليوم لم يعد الطفل ذاته الذي كان منذ عشرين عاماً[أ].

يوضح وايزمان إلحاح الرأي القائل بـ «ضرورة» الموت من خلال الحقيقة القائلة بأننا نقيّم رؤيتنا على أساس التجربة التي اقتصرت فحسب على الإنسان والحيوانات العليا والنباتات (أي اقتصرت على الكائنات متعددة الخلايا) وكذلك أننا لم نتوصل إلا حديثاً لإدراك أنه بين هذه الكائنات منح الخلود لأجزاء معينة من الجسم (الخلايا التوالدية)[٧].

عندئذ تهبط المناقشة بذاتها إلى مسألة ما إذا كان «انقسام» الكائنات وحيدة الخلية يمكن أن يوصف بأنه «موت» بالمعنى الصحيح. غير أن هناك صعوبة أخرى إضافية تميز كل التفكير الذي يدور حول الحياة أو الموت، أي أن كل كائن حي هو في الوقت نفسه «حياة» فردية محددة، لها عمر يمتد بين الميلاد والموت وكذلك هو، إذا ما صح التعبير، تجسيد للحياة بمعناها المطلق. والأفراد يفنون، لكن الحياة تستمر، بلا نهاية. وشرارة الحياة لا تخمد قط، وإنما يسلم كل جيل نورها إلى الجيل الذي يليه. وهكذا يتحدث عالم الأحياء الألماني جوهان موللر J. Muller عن «وميض الحياة [schimmer van Unsterblichkeit] الذي يكمن في الخلايا الجرثومية للأفراد الفانين». ويشير عالم الفيزياء الألماني الكسندر ليبشوتز A. Lipschutz إلى الخلايا الجرثومية للكائنات متعددة الخلايا باعتبارها «أساس الخلود المحتمل». أما الخلايا الأخرى، أي Soma فهي ليست إلا التربة التي تغذي الخلايا الجرثومية، وهي «أساس الموت الطبيعي».

لكن تجارب الجرّاح وعالم الأحياء الفرنسي الكسيس كاريل A. Carrel تشير إلى أنه حتى الخلايا الجسدية المتعضية Somatic لا يتعين بالضرورة أن تموت، فقد حفظت الأنسجة الحيوانية خارج الكائن الحي لمدة زمنية تفوق كثيراً عمر الكائن الذي أخذت منه. من هنا، فإن كاريل يجد أن «إزالة الفضلات وتوافر الغذاء السليم يحولان دون حدوث الموت... والخلايا التي تبني الجسم قادرة على توالد لا

نهاية له، فهي خالدة على صعيد الإمكان»[٨].

إذا أمكن إظهار أن الموت ليس لازمة ضرورية من لوازم الحياة، فإن إلغاء الموت يصبح، على الأقل نظرياً، أمراً ممكناً، وإن لم يصبح الخلود مسألة تتعلق بالأسلوب الفني فحسب، فعلى الأقل يصبح طول العمر الممتد عملياً بلا انتهاء مسألة أسلوب فحسب.

كتب عالم الأحياء الأميركي ريموند بيرل R. Pearl، مشيراً إلى تجارب كاريل في مادته بعنوان «الجوانب البيولوجية للموت» في دائرة المعارف البريطانية، يقول إن الموت ليس «شرطاً أساسياً للحياة» وإنما هو «حادث عارض». غير أن استنتاج كاريل كما سنرى في موضع لاحق لا يحمل أملاً بتحقق حلم الإنسان بضمان الخلود بمعنى انتفاء الموت.

قوبلت وجهات النظر هذه في العهود الحديثة بمعارضة كبيرة. فقد ذهب عالم الفيزياء الفرنسي إ. موبا E. Maupas في القرن التاسع عشر إلى القول بأن «النقاعيات - الأبوية Parent - infusoria» المنقسمة لا بد لها من أن تموت ذات يوم ما لم «تتزاوج»، أي ما لم تخلق حياة جديدة من خلال عملية مماثلة للتوالد الجنسي عند الحيوانات العليا[٩]. وشدد عالم الفيزياء الألماني فيلهلم فليس W. Fliess في وقت مبكر يعود إلى عام ١٩٠٩ على أن الموت هو «أمر حتمي» لكل الكائنات الحية بغض النظر عن مدى بساطتها، وكتب يقول: «ما من جدل يمكن أن يجعل الموت يختفي. وفي كل مكان حيثما تنشأ الحياة فإنها تنقضي كذلك. فالكائن الحي يشبه ساعة ممتلئة تحمل في داخلها قانون تفريغ الامتلاء»[١٠].

وأحدث المعارضات يقدمها عالم الأحياء الألماني رودولف إهرنبرج R. Ehrenberg، فهو يذهب في كتابه الموسوم «علم الأحياء النظري» إلى القول بأن هناك «قانوناً أساسياً لعلم الأحياء» هو «قانون ضرورة الموت». ومن منظوره فإن هذا القانون جرى تجاهله باستمرار لأن العلم لم يحمل ضرورة الموت محمل الجد قط. إذ أن مفهوم الموت كنتيجة للبلى والتمزق والاستعمال أو كنتيجة لعملية الحياة باعتبارها كذلك (من خلال التسمم الذاتي بسبب عجز الكائن عن التخلص من نتاجات عملية الأيض metabolism التي يقوم بها)(ب) لا يبرز العلاقة الحقيقية بين الحياة والموت». فليس الموت النهاية التي لا سبيل إلى تجنبها للحياة فحسب والعلاقة بين الاثنين ليست ببساطة علاقة بين الموجب والسالب، وإنما الموت أمر ضروري. وكما عبر إهرنبرج عن الأمر، فإنه: ليس المطروح» لا حياة دون موت» وإنما المطروح هو «دون الموت لا حياة»، وهو يقول كذلك: «إن هذا القانون... هو المعادل البيولوجي لقانون الانتروبيا»[١٢]. «إن أمامنا هنا انعدام القابلية البيولوجية للانعكاس... إن الحياة انحدار (Ablauf)... من هنا، فإن عملنا مبرر ونحن مضطرون إلى أن نعطي للموت المكانة ذاتها في علم الأحياء التي يحتلها الصفر المطلق في الدنياميكا الحرارية»(ج)[١٣].

وفيما يتعلق بنظرية وايزمان في الخلود المحتمل للكائنات وحيدة الخلية، يرى إهرنبرج أن كلمة «خلود immortality» لا يمكن تطبيقها هنا. «ذلك أن الموت يتعين تحديده باعتباره نهاية عملية الحياة الفردية، وهذا يعد بالقدر ذاته نهاية من خلال انقسام الخلية تماماً كما هو نهاية من خلال موت الكائن»[١٤]. وكون الحياة لا تنتهي وإنما تستمر من خلال الانقسام أو عن طريق التوالد حقيقة جلية، ومثل هذه العملية لا تستحق بحال اسم «الخلود». وعلى أية حال، فإن الحياة المستمرة يتعين أن تمر بواقعة هي بمثابة كارثة، سواء أموتاً كانت أو انقساماً.

الحياة، منذ البداية، انتقال مستمر من العيش إلى الموت، والموت «مصلت على الرقاب» في قلب الحياة. والقول «إننا في غمار الحياة نوجد في قلب الموت Media in vita in morte sunnus» لا يعني بالنسبة لإهرنبرج فحسب أن «كل لحظة نحياها بالفعل نحو الموت، وليس الموت غاية فقط وإنما هو انجاز». والكهولة، أي «انحدار» الحياة هي انجاز vollendung للزمان. فانحدار الحياة هو «تدن بالممكن وتراكم للحقيقي» أو بتعبير آخر إن الحياة «تحقق». والتحقق المنجز هو الموت. ويتساءل إهرنبرج: هل نستطيع تعريف الموت بأنه الصفر المطلق للعملية الحيوية، تماماً على ما تعرف الفيزياء صفرها المطلق (- ٢٧٣° مئوية)؟ لو أنه كان بمقدورنا القيام بذلك، لتمكنا لا من إزاحة غموض الموت فحسب، وإنما من حل لغز الحياة كذلك.

يتمحور الفارق بين النظريتين حول الكائنات وحيدة الخلية، أو بالأحرى حول الحياة باعتبارها كذلك، وليس تجلياتها الفردية في الكائنات متعددة الخلايا. وفيما يتعلق بهذه الكائنات الأخيرة، فإنه حتى كاريل، على الرغم من تشديده على الخلود للخلايا الجسدية، ذهب إلى القول بأن

«الموت ليس شيئاً دخيلاً، وإنما هو جزء من ذاتنا، وهو ماثل في جينات البويضة. وينشط داخل الأنسجة والدم بصورة أكثر احتداماً قبل الموت وخلال الطفولة بالمقارنة به خلال الشباب والنضج».

يتحدث العالم النفساني المجري ل. زوندي L. Szondi، الذي يعتبر أن هناك احتمالاً قوياً لوجود «جينات قاتلة حيث «إننا سنموت جميعاً ذات يوم»(د) يتحدث عن «الانتماء إلى الموت Thanatotropism» ويقصد به أن في كل كائن حي قوة مجهولة تدفعه نحو الموت. ويمضي مشيراً إلى أن هذا الميل يفصح عن نفسه، فيما يبدو، في النزعة نحو «نوع معين من الموت» في إطار المجموعة العائلية، فهناك الموت من جراء السرطان في مجموعة ما، والموت في مجموعات أخرى نتيجة للسل، وهناك آخرون يضعون حداً لحياتهم بالانتحار.

غير أنه سواء أكان الموت يأتي من «الخارج» أو من «الداخل»، وسواء أكان «ينتمي» إلى الحياة أو كان «حادثاً» خارجياً، فلا مهرب منه فيما يتعلق بالإنسان. (هـ) ويقول كاريل «لن يقهر الانسان الموت قط، فهو الثمن(١٥) الذي يتعين علينا لقاء سرعة خاطرنا وتماسك جسمنا وبهاء وعينا»(و).

تعد نظرية إهرنبرج في «ضرورة الموت بوضوح تطبيقاً في مجال علم الأحياء لنظرية فرويد في غريزة الموت. وهي تمثل مفهوماً جديداً للموت في علم الأحياء. فبينما كان ينظر إلى الموت في السابق باعتباره كارثة ونتيجة لصدام بين العالم الخارجي الميكانيكي والكائن، فإن الموت ينظر إليه الآن باعتباره تطوراً، يحدثه الكائن بنفسه. وكما يقول المؤرخ السويسري هانز جيبسر H. Gebser فإن «الموت ليس شيئاً يقع لنا، وإنما هو شيء حي ينمو فينا». غير أن مثل هذا المفهوم للموت ليس شيئاً جديداً على الاطلاق في الفلسفة. فقد صاغه في وقت مبكر، يعود إلى عام ١٨٣٠، الفيلسوف الألماني لودفيج فويرباخ L. Feuerbach، وأعاد طرحه الفيلسوف الألماني جورج زمّل G. Simmel في عام ١٩١٠.

لهذا المفهوم للموت نتيجتان واضحتان. فهو من ناحية يضع حداً للتصور الخيالي حول امكانية المد الذي لا نهاية له للعمر البشري(و) (قد يبدو هذا على الصعيد العملي شيئاً لا أهمية، لكنه شأن نقد إمانويل كانت E. Kant فيما يتعلق بضوابط العقل الخالص فإنه يفرض قيداً نظرياً يجعل بصورة مسبقة مثل هذه التوقعات مستحيلة). غير أن أنصار هذه الطريقة الجديدة في النظر إلى الموت يتوقعون بوضوح، من ناحية أخرى، أنها ستساعد في تحقيق التصالح مع حقيقة الموت: فالمعرفة بأن الموت «ينتمي» إلى الحياة من شأنها أن تجعل قبوله أكثر يسراً. ذلك أنه إذا كان الأمر كما يعبر فويرباخ «الموت يقبع منذ البداية ذاتها في نخاع عظامنا» فإن الرغبة في الخلود هي أمر «غير طبيعي»، بينما الرغبة في الموت باعتباره عدماً نهائياً هي أمر متوافق مع الوضعية الحقة للأمور(ز).

مع ذلك، فإنه حتى إذا لم يكن الموت كارثة، بل شيئاً معلقاً فوق الرقاب، فإنه سيواصل التبدي في صورة الكارثة بالنسبة لمعظم الناس. لا يرجع ذلك فحسب إلى أن العديد من الأشخاص لا يموتون موتاً طبيعياً، وإنما يموتون من جراء المرض، أو يقتلون، أو يسقطون ضحية للحوادث (والأمر الأخير سيستمر حتى ولو تم القضاء كلية على الأمراض كافة) بل يرجع إلى أن مفهوم نهاية الوجود الفردي وكذلك المعايشة الحميمة لموت المرء يمثلان تغيراً متطرفاً لوضعية الحياة المألوفة.

هكذا، فإن كون المفهوم الجديد للموت قد أعاد إرساء التمييز القديم، المعروف بالفعل منذ قدامى الاغريق، بين Thanatos (أي الموت الطبيعي من جراء الشيخوخة) و Ker (أي روح الموت العنيف والمرض والجنون)(١٨) لا يغير كثيراً من المهمة المتمثلة في التصالح مع الموت. ومن ناحية، فإن العلم يتناول هذه المشكلة من خلال محاولة إطالة العمر إلى حد أن عدداً متزايداً من الشخصيات سيصل إلى شيخوخة ناضجة عندها، كما يأمل عالم البكتريا الروسي المنتمي للقرن التاسع عشر والحائز على جائزة نوبل إيلي ميتشنكوف E. Metchnikoff، سيظهر الحنين إلى الموت كأمر طبيعي، وسيموت الإنسان طائعاً دونما شعور بالأسى، أو كما عبر الشاعر الانجليزي المنتمي إلى القرن التاسع عشر وليام إرنست هينلي W. Henly في قصيدته الموسومة «مرجريتا سورورري»:

ليكن على هذا النحو انقضائي!
مهمتي تحققت واليوم الطويل استنفد
مثوبتي تلقيتها، وفي فؤادي
تشدو قبرة تمهلت،
دعني ألتم إلى الغرب الهادىء

الغروب الرائع والموت الجليل.

من ناحية أخرى، فإن التصالح مع الموت يشكل تفنيداً لعبث الحياة الذي يبدو أن الموت، حتى الموت الذي يتاق إليه، يعلنه. وليس العلم هنا عاجزاً بصورة مطلقة عن تقديم المساعدة فحسب، وإنما هو على العكس قد ساهم في عجز الإنسان العقلي والانفعالي في مواجهة الموت، ولا يرجع ذلك إلى إعادة تأكيده للاستنتاج الشائع بأن الموت عدم مطلق للفرد بقدر ما يرجع إلى أن الرؤية للعالم التي يقدمها العلم يعد الوجود الإنساني شيئاً لا أهمية له وليس الإنسان إلا نوعاً حيوانياً آخر قدر له الاختفاء الفعلي. وخير ما يمكنه القيام به هو الدعوة للمعقولية العذبة لتقبل الفناء. هكذا كتب السياسي والفيلسوف الانجليزي هربرت صمويل H. Samuel يقول: «ما لم تكن هناك، ارتحالات عن عالمنا، فسرعان ما يأتي حين من الدهر لن يكون من الممكن فيه أن تكون هناك ارتحالات إليه... إضافة إلى ذلك، فلو قدر أن يكون هناك عالم يضم كائنات خالدة لا تستبدل أبداً، فلن يكون هذا العالم إلا عالماً سكونياً جامداً. والمسار التطوري الذي يسود في حقيقة الأمر الطبيعة العضوية يقتضي بالفعل أن يحل فرد محل آخر وجيل مكان الجيل الذي سبقه. من هنا، فإن الموت نفسه ينبغي أن يكون أمراً جوهرياً في مثل هذا النظام. إنه شيء طيب على الصعيد الاجتماعي. والغريزة الأنانية تمضي بنا إلى كراهيته ومقاومته، أما الغريزة الاجتماعية فينبغي أن تمضي بنا إلى تقبله في حينه دونما تبرم»(ح)(١٩).

حتى صمويل يقر بأنه حينما يكون الموت قبل الأوان، أو عنيفاً، أو مؤلماً، فإنه يعد «بوضوح من الشرور». ولا يساهم كثيراً في انجاز مهمة تسهيل قبول الموت ما يلاحظه تشارلز داروين فيما يتعلق بالموت المؤلم والعنيف (في غمار حديثه عن الكفاح من أجل الحياة في عالم الحيوان) من أنه على الرغم من أن فكرة مثل هذا الموت محبطة للغاية فإن هناك العزاء المتمثل في أن الخوف غير موجود عملياً عند الحيوان وأن الموت سريع. وعدم الملاءمة ذاتها تتجلى حينما كتب عالم طبيعي عظيم آخر ينتمي إلى القرن التاسع عشر هو الفريد راسل والاس A. wallace يقول: «إن عذابات وضروب بؤس الحيوانات المفترضة لا وجود حقيقياً لها، إلا في القليل، وهي انعكاسات لحساسيات متصورة للرجال والنساء المتحضرين في ظروف مماثلة». ذلك أنه على الرغم من أن الإنسان لا يجد نفسه عادة، اللهم إلا في الحرب في «ظروف مماثلة» فإنه يعرف الموت ويخشاه وغالباً ما يعايشه مؤلماً ومتطاولاً. وحتى إذا كان الاحتضار غالباً بلا ألم، أو يمكن جعله كذلك، كما يزعم البعض «ساراً» على وجه التقريب، فلا أحد يعرف مسبقاً ما إذا كان موته سيكون «يسيراً» من عدمه، كذلك فإن الخوف من الألم الذي يصاحب الاحتضار ليس بالعنصر البارز في الخوف والحزن اللذين يقترنان بالموت. وعلى الرغم من أن أحداً ممن شاهدوا الأفراد وهم يموتون في حميا الألم لا يمكنه أن يقلل من النعمة التي وهبت للبشرية في صورة منجزاتنا في التخفيف من ألمها، فإن هذا الجانب في الموت ليس بالجانب الوحيد الذي له أهميته في تحديد علاقة الانسان بالموت. إن احتمال عدم الاستمرار في الوجود هو الذي يجعل معظم البشر يكرهون الموت. وعلاوة على ذلك فإن الموت، بالنسبة للكثيرين، ليس مجرد «عبور» ينبغي للمرء أن يقلق بخصوصه حينما يتعين عليه القيام به فحسب، وإنما التفكير في الموت وحقيقة اضطرار المرء للموت إطلاقاً هما اللذان يقهران الكثيرين.

بمقدور العلم أن يساعد الإنسان في الاحتضار، لكنه لا يستطيع أن يبعث في نفسه العزاء فيما يتعلق بالموت ذاته. وما يستطيع أن يعد الإنسان به لا يعدو أن يكون «خلوداً بيولوجياً» في ذريته، فيما ينثر بعض الملاحظات الهامشية لتبرير «جدوى» الموت. لكن الإنسان، الانسان الفاني البائس، لا يستطيع الحيلولة دون الشعور بأن «الافتقار إلى المجال» المحتمل بالنسبة للأجيال المقبلة هو عزاء بائس حقاً.

فضلاً عن ذلك، فإن الإنسانية ككل يبدو أنه قدر لها الاختفاء المطلق. وحتى حينما لم يكن بمقدور أحد التفكير في احتمال إفناء البشرية لذاتها (وهو احتمال أصبح واقعياً للغاية منذ تطوير الأسلحة النووية) فإن العديد من الأفئدة الحساسة قد استشرفت بوضوح هذا الاحتمال، واستشعرت اليأس حياله، كما هو الحال بالنسبة للشاعر الفرنسي المنتمي إلى القرن التاسع عشر الفريد دي فيني A. de Vigny الذي قال:

ضعي يدك النقية على فؤادي المعذب،
لا تدعيني وحدي مع الطبيعة أبداً،
ذلك أني أعرفها حق المعرفة فلا أخشاها.
إنها تقول لي:

في احتقار أدور لا أرى
ولا أسمع ، شعوب الأرض جنباً
إلى جنب مع النمال . لست أميز
مسكنهم من رمادهم ، وفيما
أحملهم أجهل أسماء
الأمم . يدعونني أما وأنا قبر(٢١) .

إن عدم ملاءمة ما يمكن للعلم أن يقدمه كعزاء قد أدى إلى مزيج غريب من العلم والايمان المسيحي بالبعث ، طرحه الكاتب الروسي نيكولاي فيدوروف N. Fedaroff . فقد حلم ، في كتابه الذي نشر بعد موته تحت عنوان «فلسفة القضية المشتركة» ، بمجتمع طوباوي يضم البشرية بأسرها ، وقد توحدت في مهمة قهر الموت . ولن يكون الفوز نتيجة للطف الإلهي فحسب ، وإنما للجهد الانساني كذلك . فليس ينبغي على الإنسان أن ينتظر البعث في سلبية ، وإنما ينبغي تسخير كل الطاقات وصولاً إلى هذا الهدف ، وخاصة عمل أولئك المنغمسين في العلم والتكنولوجيا الذي سيخدم الدين . فضلاً عن ذلك ، فإن هذه المهمة لا يمكن أن تكلل بالانجاز ما لم يقم صرحها على تبجيل أسلافنا . فعلى الإنسان أن يجدد روابطه بالماضي ، وأنه في المقام الأول وقبل كل شيء «ابن» . وليس من حقه أن ينسى الموتى ، بل إن فيدوروف يوصي بأن حياتنا ينبغي أن تتمحور حول المقابر ، قرب أجسام أسلافنا . وهو باختصار يرغب في أن يحول حياة الانسان إلى طقس قرباني ، وعلى هذا النحو ، يقضي على القلق من الموت وعبث الحياة .

علاوة على ذلك ، فإن البشرية ليست وحدها هي المقدر عليها الاختفاء ، وإنما الأمر كذلك بالنسبة للأرض التي تقطنها والنظام الشمسي بأسره . وفي كتابه المتعمق يواجه الكاتب الفرنسي إدجار موران E. Morin هذه القضية بصورة مباشرة حينما توجه في كتابه المتعمق إلى العلم بحثاً عن حل «عملي» لمشكلة الموت .

وهو يقيم صرح تفكيره ، في هذا الصدد ، على افتراض أن «الموت ليس قدراً للحياة العضوية» ، ويتساءل عما إذا كان الرجوع إلى عدم الفناء الذي يفترض أنه قد تم إيضاحه فيما يتعلق بالكائنات وحيدة الخلية(ط) ليس أمراً ممكناً فيما يتعلق بالانسان كذلك . وبما أن «الشيخوخة هي «طليعة الموت» فإن معرفة الشيخوخة هي معرفة الموت» . ويشير موران إلى رؤية ميتشنكوف القائلة بأن الشيخوخة ليست راجعة إلى ضعف عام في الخلايا وإلى استنتاجه أنه ليس هناك شيخوخة وموت «عادي» ، ويجد موران أن «بقدر ما إن الشخيوخة والموت هما «مرضان» فإنهما ينتميان إلى مجال الطب ومن الممكن معالجتهما» . وفي غمار مناقشته لتجارب استعادة الشباب التي قام بها علماء الأحياء تشارلز براون سكورد C. Brown - Sequard ، سيرجي فورونوف S. voronoff ، ويوجين شتايناخ E. Steinach ، يذهب موران إلى القول بأنه إذا كان من الممكن رد الشيخوخة إلى الوراء خمسين عاماً فإن بمقدور المرء أن يتوقع بصورة معقولة أنه يمكن رده إلى الوراء «مرة ثانية وثالثة إلى ما لانهاية . و «عدم الوصول للشيخوخة» إنما هو «عدم الموت» . وكل الطرق المستخدمة لقهر الشيخوخة والموت «الداخلي» تتضمن كذلك الامكانية الفعلية لمحاربة الموت «الخارجي» ، أي الموت من جراء الحوادث والجراح .

إن المعنى الذي يريد موران تكريسه هو أن «الموت إذ يقع بالفعل في منظور إطالة متوسط العمر فلا بد أن تأتي اللحظة التي يغير فيها الموت طبيعته» . ومن شأن اعفاء مؤقت من الموت يتم تجديده باستمرار ، إغماء «غير معرض للصدفة» على الرغم من أنه لا يحمي الإنسان من الموت النهائي ، أن يجعله إلى حد معين خالداً . من هنا ، فإن موران يعتقد أن التقدم العلمي لا يعد فحسب بـ «قضم تقدمي رقيق» للموت ، وإنما كذلك بتشوير صورة الإنسان عن ذاته . فاحتمالات التطور الإنساني تستعصي على التخيل ، وبمقدور المرء أن يتوقع مقدمة فردية جديدة .

حتى إذا لم نعارض المقدمة الأساسية لطرح موران ، وهي أن الموت ليس سمة جوهرية للحياة ، على نحو ما يميل علم الأحياء الحديث إلى الاعتقاد ، فإن هناك خطأ آخر لم يلفت أحد الانتباه إليه حتى الآن على قدر علمنا : هل نستطيع بصورة مشروعة أن نسوي بين استعادة الشباب وإطالة العمر؟ وبتعبير آخر أين البرهان على أن الأشخاص الذين يرد عليهم شبابهم ما كانوا ليعيشوا بقدر ما عاشوا على الرغم من أنه من الواضح أن ذلك كان سيتم بحيوية أقل؟ ألا تؤدي استعادتهم للشباب إلى جعلهم فحسب «يشعرون بأنهم أصغر عمراً» بدلاً من أن يتم بالفعل ، وكما يبدو أنه يفترض ضمناً ، إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء؟ بل أليس هناك احتمال لأن «كونهم يشعرون بأنهم أصغر عمراً» قد يفضي بهؤلاء الأفراد إلى نمط حياة يعجل بمقدم الموت؟ (ي).

غير أن هذه الاعتراضات أقل حسماً من الأفكار التي خطرت لموران في وقت لاحق، فهو يدرك أن عدم الفناء المحتمل مستقبلاً «لن يصلح المصارع السابقة.... مليارات المصارع غير الضرورية والتي لا سبيل لاصلاحها. وفضلاً عن ذلك، فإن ما سيتم العثور عليه في نهاية الفناء ليس الخلود النعيمي وإنما سيتم العثور على موت كوني هائل... وهناك التناقض الذي يدفع إلى الجنون بين إنسانية تدعم بصورة مضطردة انتصارها على الموت وبين حلقة الفناء الكوني الجليدي التي تضيق في الوقت على نحو لا فكاك منه»[٢٣].

ليس التأكيد العنيد للفردية إلا أحد الميول الأساسية للانسان ومن الميول الأخرى المشاركة الكونية. هكذا، فحينما يتم اشباع الميل الأول من خلال تحقيق الخلود فإن الانسان بعد هذا الانتصار قد يتجه نحو الامتزاج المفعم حباً مع الكون، حيث ينفي الخلود ذاته، وسيتصل التطور الإنساني بالتطور الكوني، الذي يقود إلى نيرفانا فعلية de facto Nirvana. وبحسب افتراض موران فإن «الصراخ الإنساني المبحر في المكان والزمان سينطلق نحو ليل لا نهاية له» وسيحقق الحب ذاته في الموت. لا في موت «أجوف»، وإنما في الموت الكامل الذي حلم به الفلاسفة: «الوجود ـ العدم المطلق... عندئذ فإن الذاكرة وحدها، التي هي كما يقول برجسون Bergson الخلود الحق، ستبقى. ومن الوعي الكلي سينهض يوماً كون جديد».

الحواشي الفرعية

(أ) ليست تلك بالحجة بالغة الجسم، فالجراح الألماني الشهير جورج بيرت G. Perthes على سبيل المثال، يشدد على أنه رغم أن تلك الكائنات وحيدة الخلية لا تترك جثة إلا أنها تموت، لأنها تنقسم وتشكل فرديتين جديدتين تماماً. وعلاوة على ذلك، فإن التشبيه بالكائن البشري ليس صحيحاً. فالإنسان يتمتع بالشعور بالهوية الشخصية الآن، على نحو ما كان يتمتع به قبل عشرين عاماً، بينما النقاعية المنقسمة ـ إذا ما كانت تتمتع بوعي بالذات ـ فإنها ستحظى بالضرورة بوعيين، أي أنها ستكون فردين بدلاً من فرد واحد. وبصفة عامة فإن مشكلة الموت هي ـ على الأقل بالنسبة للكائن البشري الفردي على الأقل ـ ليست أن المرء سيكف عن الوجود كوحدة بيولوجية، وإنما أن «شخصية» المرء الواعية ستموت. وإذا لم يكن الأمر كذلك لرضي الإنسان بـ «الخلود» البيولوجي.

(ب) أنظر أعمال عالمي الفيزياء ماكس فيرورن M. Verworn وريتشارد هيرتويج R. Hertwig. ملاحظة: يمكن أن تستخدم نظرية التسمم الذاتي للبرهنة على وجهتي النظر كلتيهما. وبمقدور المرء أن يقول إن التخلص من الفضلات من وسيط النمو الصناعي يسمح بوجود غير محدود ويبرهن على أن الحياة ليست شيئاً يقضي على ذاته. غير أن بمقدور المرء، من ناحية أخرى، أن يقول إن الموت طبيعي بما أنه في الحالة الطبيعية لا وجود لامكانية التخلص من الفضلات على نحو ما هو الحال عليه في المعمل.

(ج) وبستر: «وفقاً لنظرية الحركة فإنه يمثل درجة الحرارة [تقريباً ٤٥٩,٦° ف (- ٢٧٣,١° س) التي تتوقف فيها كل حركة حرارية.

(د) ليست تلك بالحجة بالغة الاقناع، حيث أنه بسبب حقيقة موتنا يتم افتراض وجود الجينات القاتلة. وبالمثل فإن بعض المؤلفين يبدو أنهم يفترضون وجود «غريزة الموت» باعتبارها «تفسيراً» لحقيقة موتنا، بينما هي لا تعني بالنسبة لفرويد إلا المعادلة النفسية لحقيقة الموت «موازاة» في الميل غير الواعي من جانب المادة الحية للعودة إلى حالة المادة السكونية.

(هـ) يقول وايزمان بدوره إن «القدرة على الحياة التي لا تنتهي قد ضاعت عند عدد هائل من الكائنات التي تتمتع بقدر أكبر أو أقل من التعقد» و «غير أنه لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في أن الكائنات العليا على نحو ما هي مركبة الآن تضم في داخلها بذور موتها».

(و) هناك تضارب معين في وجهة النظر تلك يلفت إهرنبرج النظر إليه، حيث أنها تفترض مسبقاً ضعفاً ونقصاً في الكائنات عديدة الخلايا بالمقارنة بالكائنات وحيدة الخلايا. ويستخدم إهرنبرج هذا التضارب ليبرهن على صحة النقطة التي يطرحها والقائلة بأن الحياة بأسرها فانية بما في ذلك الكائنات وحيدة الخلية.

(ز) ينبغي أن يلاحظ أنه حتى الرؤية القائلة بأن الإنسان فان لا تستبعد بالضرورة الأمل في «استمرار البقاء» بعد الموت. هكذا فإن كاريل، على سبيل المثال، يقول إنه «... ليس لأحد الحق في أن يقول إن مثل هذا الاستمرار في البقاء مستحيل. وعلينا أن نتذكر أن الأنشطة العقلية على الرغم من أنها مرتبطة دائماً بالجسم إلا أنها لا توصف تماماً في إطار الأبعاد الأربعة للتواصل. فطبيعتها مجهولة. وافتراض أن جزءاً من الشخصية الإنسانية قد ينجو من الموت هو أبعد ما يكون عن المعقول»[١٥].

(ح) من المهم أن نشير في هذا الصدد إلى أن نظرية وايزمان قد طرحت كذلك لتفسير حقائق معينة في «علم نفس» الموت. هكذا فإن عالم الفيزياء الفرنسي ل. ديريجوان L. Dirigoin يقول إن الرغبة في الخلود قد تكون «التذكر» المعتم لخلود البروتوبلازم. وعالم النفس العلاجي الألماني المولد بول تشايلدر L. Schild, يرى تماثلاً بين هذا البرهان المناهض لضرورة الموت في الكائن وحيد الخلية» والحقيقة القائلة بأن «الكائنات البشرية لا تقر بالموت من وجهة النظر النفسية»[١٦] تشايلدر يشير هنا إلى الحقيقة المتضمنة لمفارقة، والتي تقول إنه على الرغم من أن الإنسان يعرف أنه مضطر للموت إلا أنه «لا يعتقد حقاً» أنه هو نفسه سيموت. وقد أشار الفيلسوف الألماني كارل يسبرز K. Jaspers كذلك إلى هذا مراراً وتكراراً أنظر: مؤلفه بعنوان «رد على نقادي».

ومن المثير للشعور بخيبة الأمل، بالقدر ذاته؛ أن نقرأ في دراسة حديثة عن الموت والخلود أعدها استاذ جامعي لعلم الأحياء أن «مبدأ بناء» المادة الحية موجه نحو الحفاظ على الذات وأن علينا بالتالي أن نتوقع وأن سيكولوجية شخصنا لا تمضي في نحو مضاد لهذا المبدأ الأساسي، وبتعبير آخر إن على كل الكائنات الحية أن تكافح باتجاه الخلود. غير أن المؤلف يخبرنا في الوهلة ذاتها أن علينا أن نتعلم لنتغلب على هذه الميول إلى

الخلود (لم؟) وأن نصل إلى رؤية أكثر موضوعية من سواها عدم اسناد قيمة أعلى إلى ذلك الذي يبقى ويدوم[٢٠].

يتميز عدم الفناء amortality عن الخلود Immortality بأن الأول وعدم الموت deathlessness بينما الثاني يؤخذ على أنه يعني كما هو الحال عادة استمرار البقاء (بالنسبة لـ «النفس Saul» أو «الروح» بعد الموت.

لا تنبغي اساءة تفسير هذه الملاحظات والنظر إليها على أنها تعني أن ــــ الشباب ليست شيئاً مرغوباً فيه وأنه قد لا يكون من الأفضل أن يحيا المرء متمتعاً بكل خصائصه على نحو كامل حتى إذا كان ذلك قد يقصر عمره.

الحواشي الرئيسية

(١) وايزمان، أوجست ـ مقالات حول الوراثة ـ أكسفورد ـ كلارندون برس ـ ١٩٨٢ ـ الجزء الأول «طول الحياة» ص ٢٥.

(٢) المرجع نفسه ـ المجلد الأول ـ ص ٢٤.

(٣) المرجع نفسه ـ المجلد الأول ـ ص ١١١.

(٤) المرجع نفسه ـ المجلد الثاني ـ ص ٧٤.

(٥) المرجع نفسه ـ المجلد الثاني ـ ص ٧٩.

(٦) المرجع نفسه ـ المجلد الأول ـ ص ٢٥.

(٧) المرجع نفسه ـ المجلد الثاني ـ ص ٨٧.

(٨) كاريل، الكسيس ـ «لغز الموت» في: الطب والبشرية ـ تحرير آي ـ جالد ستون ـ نيويورك ـ أبلتون ستشري كروفتز ـ ١٩٣٥.

(٩) موبا، إ. ـ دراسات تجريبية حول تكاثر النقاعيات ذات الأهداب ـ أرشيف علم الحيوان التجريبي. السلسلة الثانية ـ المجلد ٤ (١٨٨٨) ـ ص ١٦٥ وما بعدها.

(١٠) فليس، فيلهلم ـ في الحياة والموت ـ جينا ـ ديدريش ـ ١٩١٩ ـ جميع الترجمات التي لا يشار إلى القائم بانجازها هي لمؤلف هذا الكتاب.

(١١) أنظر: على سبيل المثال كتابات إ. كورشيلت Korschelt وفرانز دوفلين Doflein.

(١٢) إهرنبرج، رودولف ـ علم الأحياء النظري من منظور عدم قابلية التطور الأولى الحي للانعكاس ـ برلين ـ جي. سبرنجر ـ ١٩٢٣، ص ٦، ٧.

(١٣) المرجع نفسه ـ ص ٢٨.

(١٤) إهرنبرج، رودولف ـ الانحدار إلى الموت «ستاديم جنرال» ديسمبر ١٩٥١ ـ ص ٥٥٩ ـ ٥٦٦.

(١٥) كاريل ـ مرجع سبق ذكره.

(١٦) تشايلدر، بول ـ أهداف الإنسان ورغباته ـ نيويورك ـ كولومبيا يونيفرستي برس ـ ١٩٤٥.

(١٧) يسبرز، كارل ـ «رد على نقادي» في «فلسفة كارل يسبرز ـ تحرير بول أرثر شليب ـ نيويورك ـ تودور بليشنج كومباني ـ ١٩٥٧ ـ ص ٨٢١.

(١٨) موراي، جيلبرت ـ خمس مراحل في الديانة الاغريقية ـ جاردن سيتي ن. ي. دوبلداي (أنكور بوكس) ـ ١٩٥٥.

(١٩) صمويل، هربرت ـ الايمان والعمل ـ نيويورك ـ بانثيون بوكس ـ ١٩٥٣ ـ ص ٦٧

(٢٠) لينسر، هانز ـ الموت والخلود ـ «يونيفرستاس» ـ يناير ١٩٥١.

(٢١) ڤيني، الفريد دي ـ ترجم أ. و. إيفانز الأبيات الخمسة الأخيرة

Sur mon coeur dechire viens poser ta main pure,
Ne me laisse jamais seul avec la nature.
Car je la cannais trop pour nen pas avoir peur.
Elle me dit:
" Je roule avec dedain, Sans voir et sans entendre, ,
Acote des fourmis les populations,
Je ne distingue pas leur terrier de leur cendre,
J'ignore en les portant les noms des nations.
On me dit une mere, et je suis une tombe . . "

(٢٢) موران، إدجار ـ الإنسان والموت في التاريخ ـ باريس ـ كوريا ـ ١٩٥١ ـ ص ٣٠٥.

(٢٣) المرجع نفسه ـ ص ٣٢٥.

قصة قصيرة

واخضرت خيوط العنكبوت(١)

مصطفى زيات

- . . . .

تابع كبير المهرجين بعد فترة صمت قصيرة :

- . . لا بد أنكم تتساءلون عن مصير المفقودين ؛ أعدكم بأننا سنبحث مشكلتهم وسنصل إلى حل ، بل لقد بدأنا البحث فعلاً .

ثم تابع مغيِّراً لهجته :

- على كل حال ، ليطمئن أهل المفقودين وذووهم ، فنحن في هذه الخيمة أسرة واحدة ، وجميع أبناء الخيمة إخوة لمن فقدت أخاها ، وجميع بناتها أخوات لمن فقد أخته .

وأضاف مبتسماً :

- والخيمة مليئة بالشباب والصبايا ، وفقدان زوج أو زوجة لن يوقف مسيرة الحياة . سرت في الخيمة همسات وهمهمات وضحكات خفيفة .

وتابع كبير المهرجين بمرح :

- وقد علمنا أن الصبي المفقود ليس وحيد أمه ، كما علمنا أن الأم ما زالت شابة ! ! وكذلك زوجها .

تعالت الضحكات من زوايا الخيمة . . .

(١) «خلال الاستعراض الكبير وقعت حوادث مؤسفة دفعت المسؤول الأول في الخيمة (كبير المهرجين) لإلقاء كلمة بعد انتهاء الاستعراض ليوضح للمتفرجين حقيقة ما حدث. لكن كلمته وما حدث أثناءها يؤكدان أن الاستعراض لا يزال مستمراً. . .».

ثم تابع كبير المهرجين ، موضحاً كلامه بحركات من ذراعيه ورأسه وصدره وبطنه وساقيه :

- وبشيء من الهمة يعوضان ما فقداه . . ضحك كبير المهرجين فامتلأت الخيمة تصفيقاً وهتافاً وقهقهة وصفيراً .

فجأة ، دوّى في أرجاء الخيمة صوت طلق ناري ، فجمد المصفقون وخرس الهاتفون والضاحكون ، وساد سكون عميق قصير ، ثم عمت الفوضى .

قفز المهرجون الأعوان والتفوا حول كبيرهم وقد زاغت أبصارهم واضطربت حركاتهم وهم يتلفتون بمنة ويسرة باحثين بعيونهم وآذانهم . .

ما الخبر؟ .

جميع الحراس - المرافقون لكبير المهرجين ، والذين كانوا في الخيمة قبل وصوله - انتشروا في أنحاء الخيمة وهم يصيحون بالمتفرجين - بعصبية ظاهرة - أن لا يبرحوا أماكنهم ، وأن يلزموا الهدوء .

اكفهرت وجوه المتفرجين وانفتحت أفواههم وتطاولت أعناقهم ، وهم في أماكنهم لم يتزحزحوا عنها ، يبحثون بآذانهم المتوترة وعيونهم الجاحظة . .

ما الخبر؟

انتصب رئيس الحرس - وعلى جانبيه اثنان من معاونيه - على حافة الحلبة .

همس رئيس الحرس في أذن معاونه فهرول منادياً جماعته باتجاه المدخل الرئيسي للخيمة، وأشار إلى معاونه الثاني فأسرع متقدماً جماعته باتجاه الركن الذي يصدر منه الصراخ والعويل.

بقي رئيس الحرس في مكانه يراقب ما يجري على مدرجات الخيمة، ويشرف على أعمال رجاله، ويتفقد - بعينيه - بين حين وآخر - كبير المهرجين وأعوانه الذين أحيطوا بدائرة كاملة من الحراس.

هرول المعاون الثاني عائداً إلى رئيسه، وقف بجانبه وهمس في أذنه بضع كلمات مشيراً إلى مكان الحادث.

أمر رئيس الحرس معاونه بالوقوف في مكانه، واتجه مسرعاً نحو كبير المهرجين مخترقاً صفوف الحراس والأعوان، الذين فسحوا له الطريق، ثم وقف بجانب كبير المهرجين - الذي حافظ على جموده وقد أحنىٰ رأسه وأرخىٰ يديه إلى جانبيه - وهمس في أذنه بضع كلمات.

حرك كبير المهرجين ساقيه مراوحاً في مكانه ببطء شديد، ثم رفع يده - وهو ما يزال مطرقاً ومسح بها وجهه مسحاً خفيفاً، ثم فرك جبينه، وراح - بعد أن نزع قبعته بيده الأخرى - يسوّي - وهو يرفع رأسه ببطء - شعره الأشيب، وبحركة بطيئة قصيرة من يده أشار إلى رئيس الحرس بالانصراف.

اخترق رئيس الحرس صفوف الأعوان والحراس متجهاً نحو حافة الحلبة حيث وقف معاوناه.

دار بين الثلاثة حديث قصير جداً انصرف على إثره المعاونان كل في اتجاه، وهما يعطيان - بالإشارات - التعليمات لأفراد جماعتيهما بالعودة إلى أماكنهم، بينما ظل رئيس الحرس منتصباً في مكانه يراقب ويشرف.

أشار كبير المهرجين - بكلتا يديه - لأعوانه بالعودة إلى أماكنهم، كما طلب من حارسه الخاص القيام بعمل ما.

لحظات من الحركة البطيئة عاد فيها الجميع إلىٰ أماكنهم صامتين مطأطئي الرؤوس، وكان آخرهم رئيس الحرس.

ساد الخيمة سكون رهيب عميق، وبقي كبير المهرجين وسط الحلبة وحيداً مطرقاً حاملاً قبعته بيده.

عاد الحارس الخاص حاملاً كوباً وزجاجة، صب كأساً، شرب كبير المهرجين ببطء قليلاً منها وأعادها إلى حارسه الذي مضىٰ إلى مكانه.

رفع كبير المهرجين رأسه بتمهل، وأخذ صوته يعلو شيئاً فشيئاً قائلاً:

- يؤسفني أن أعلن لكم نبأ موت شاعر الخيمة.

لقد انتحر قبل قليل.

وتابع بعد توقف قصير:

- لقد بذلنا كل جهد ممكن، ولكن إصابته كانت قاتلة.

وانطلقت همسات المتفرجين، واختلطت:

- هذا ما توقعناه.
- قتله أحد الحراس!
- لم يكن هو المقصود!
- قتله أحد أعوان كبير المهرجين!
- ركب رأسه.
- قتله أحد رجال الساحر!
- كانوا يخافون كلامه.
- قتله أحد رجال البهلوان.
- لم يعجبهم صمته.
- قتله أحد رجال الخيام الأخرىٰ!
- هذا جنون!
- قتله الحب!

«أجل.. قتله الحب.. أحب الخيمة حباً لا يوصف.

رحل إلى خيام كثيرة أكبر وأقوى وأجمل...

لكنه لم يستطع العيش غريباً فعاد إلى خيمته وعلّق حياته ومستقبله بحياتها ومستقبلها.

لم يكن محباً فحسب، بل كان عاشقاً، ولم يكن يضاهي حبه للخيمة سوىٰ خوفه وقلقه عليها.. كان يخاف عليها من هبات الريح تقلع أوتادها أو تقطّع حبالها... ومن رذاذ المطر وحرارة الشمس، ومن الآخرين، كلِّ الآخرين. لكن أكثر خوفه كان منها عليها!».

تابع كبير المهرجين بعد فترة من الصمت:

- .. وتخليداً له سنطلق اسمه على أحد مداخل الخيمة..

تابع مشيراً بيده:

- ... على المدخل الذي مات بقربه، وسنعلق صورته في مكتبة الخيمة، وسنردد قصائده وأغانيه في استعراضاتنا

القادمة. وسنقيم - تكريماً له - مهرجاناً للشعر وسنحقق أمل الشاعر فنجعل شعار المهرجان ورمزه (خيوط العنكبوت الخضراء) فقد ظل يأمل - طوال حياته - أن تخضرَّ خيوط العنكبوت.

تابع كبير المهرجين بعد لحظة صمت:

- والآن أدعوكم إلى الوقوف دقيقة صمت حداداً على روح شاعرنا العظيم.

«أجل كان شاعراً عظيماً.. وبعينيه اللتين تريان ما لا يرىٰ، رأىٰ الشروخ الداخلية في أعمدة الخيمة، ولاحظ إهتراء حبالها وعطب أوتادها، وصار يرىٰ الخيمة:

(كهفاً في زواياه تدب العنكبوت والخفافيش تطير).

وقد راعه أن يرىٰ أبناء خيمته - بأوهامهم وأحلامهم - يعيشون في متاهات من صنع أيديهم... فاستولىٰ عليه القلق...

حذَّر - ألف ألف مرة - من الترقيع والتلميع... من انتظار المعجزة، ومن لعنة الزمن...

ألحَّ وألحَّ.. وكان ليناً حيناً، وعنيفاً حيناً آخر... لم يسكت - في حياته - على الإساءة مهما تكن صغيرة، ولا على المسيء أياً كان.

وحين شعر أن الكلمة عاجزة، وحين يئس من الآخرين، صمت بعنفوان...

وطال صمته... ثم رأى أن الموت أهون عليه من أن يرىٰ خيمته مسكونة بكل هذا الزيف، والهوان...

كان عظيماً في قوله وفعله وصمته ثم في موته.

كان عظيماً......».

أشار كبير المهرجين للجموع بالجلوس ولاحظ أن قبعته ما تزال في يده، فسارع بوضعها على رأسه وتثبيتها بكلتا يديه ثم انتصب دافعاً صدره إلى الأمام، رافعاً رأسه إلى الأعلى والخلف قليلاً.

تابع كبير المهرجين، وقد عادت نبرة صوته إلى ما كانت عليه في بدء خطابه:

- وبعد، الحقيقة، الحقيقة أن فقدان الشاعر ليس كارثة...

قطع كبير المهرجين حديثه - إذ لم يطق صبراً على كتمان أمرٍ كان قد أسرَّ في نفسه أن يؤجل بحثه إلى وقت آخر - وصاح بلهجة جادة حازمة:

- أما وجود مسدس داخل الخيمة، ومع شاعرها، ويوم الاستعراض الكبير، فذلك أمر خطير...

ثم تابع وهو يرمق رئيس الحرس بنظرة حادة منذرة:

- ... وسنناقشه فيما بعد.

تابع كبير المهرجين - بعد فترة من الصمت - حديثه عن شاعر الخيمة:

- ثم إنه لم يعد شاعراً، فمنذ زمن بعيد لم نسمع له قصيدة أو أغنية.

وأضاف - متظاهراً بأن الواجب يفرض عليه الكلام، معبراً عن ذلك في لهجته:

- في الحقيقة، في الحقيقة كان صمته أفضل من كلامه، فقد كان يائساً كثير الأوهام، يهوِّل ويضخِّم أصغر الأمور، فقد كان يرىٰ في انقطاع حبل كارثة، وفي انقلاع وتد مصيبة، وفي انحناء عمود طامة كبرىٰ.

وتابع بصوت مرتفع حازم، وبشيء من العصبية،

- كان مريضاً ينشر المرض، ويفسد نفوس الشباب..

وصاح بأعلى صوته:

- كان مجنوناً...

ثم تابع - ببطء شديد - متسائلاً:

- ألم تشاهدوه مراراً يكلم نفسه، وبصوت مرتفع.

«وانتابني قلق عميق، فأنا أكلم نفسي أيضاً، وباستمرار، ولكن بصوت منخفض، بل بدون صوت، وأتخيل عوالم غير معقولة، وأشعر أحياناً بأن الكثير مما أتخيله أقرب إلى العقل من الكثير الذي أشاهده في الواقع.

فهل هذا يعني أنني...؟!».

وأنهىٰ كبير المهرجين كلامه حول شاعر الخيمة قائلاً:

- وفي كل الأحوال فهو ليس الشاعر الوحيد في الخيمة...

وصمت متصنعاً التفكير، ثم أعلن - وهو يشير بيده - تعيين

أحد أعوانه من المهرجين شاعراً جديداً للخيمة ، وراح يصفق ضاحكاً .

صفق الجميع ، المهرجون والحراس والمتفرجون .

نهض شاعر الخيمة الجديد وراح يقفز راقصاً دائراً حول نفسه ، مصفقاً تارة ، محيياً تارة أخرىٰ ، مرسلاً قبلاته في الهواء لمهنّئيه ، ثم توجه نحو كبير المهرجين مطأطىء الرأس ، ينظر إلى مواقع قدميه ، وقد أسبل يديه إلى جانبيه .

مد كبير المهرجين يديه نحو شاعره الذي اندفع بوجهه محاولاً تقبيلهما ، لكن كبير المهرجين سحبهما بخفة ، ثم ألقى إحداهما على كتف شاعره وراح يمسح بالأخرىٰ رأس الشاعر الذي راح يميل رأسه نحو كتفيه ليمسح بوجهه قفا يد كبير المهرجين ، ويرفع رأسه نحو اليد الأخرى - حين تقترب من جبينه - محاولاً تقبيلها ، مكرراً ذلك مرات عديدة ، تعبيراً عن شكره وامتنانه وسعادته العارمة .

مسح كبير المهرجين بيده وجه شاعره من الأعلى إلى الأسفل ، ثم ثبتها تحت ذقنه ورفع بها رأس شاعره إلى الأعلى ، مما جعل قامة الشاعر تنتصب أيضاً ، وراح يحدق باسماً في وجه الشاعر الذي كان فاغر الفم مغمض العينين في حالة من النشوة الصوفية الغامرة هائماً في عالم آخر .

هزَّ كبير المهرجين شاعره هزة خفيفة أعادته من عالمه ، ثم دفعه مشيراً إليه بالعودة إلى مكانه .

تراجع الشاعر - بانحناءة كبيرة - سبع خطوات كاملة ، ثم شد قامته واستدار دافعاً صدره إلى الأمام رافعاً رأسه يحيِّي المتفرجين وقد شبك أصابع يديه ورفعهما بقوة ، ثم هرول عائداً إلى مكانه .

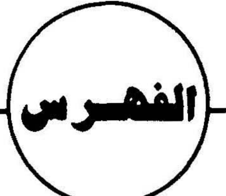
تابع كبير المهرجين - بعد أن ساد الهدوء التام - حديثه الذي قطعه موت الشاعر:

- أما الفتاة التي عضها الجرذ من ساقها فسنرسلها - مع الفتاة التي عضها القرد من ثديها - لتعالج خارج الخيمة . . .

صمت برهة ، ثم تابع

- وسيكون لها ساق صناعية حديثة آلية جميلة !

حلب



الفهرس

العدد ٧ ـ ١٢ تموز (يوليو) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٦ ـ السنة ٣٤

مسؤول التوزيع في سوريا:
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
دمشق ــ برامكة

٢ - فهرس الكتّاب